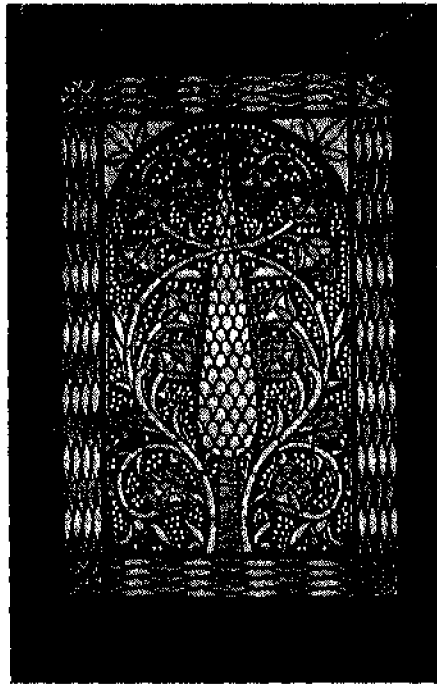


لامسّون الايطالي
اغناطيوس غويدي

ترجمه وقدم له :
ابراهيم السامرائي

محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام



محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام

للمستشرق الإيطالي
اغناطيوس غويدي

ترجمه وقدم له :
ابراهيم السامرائي



دار الحداثة

للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بناية جسر مصر ب. ١٤/٥٦٣٦

حقوق الطبع محفوظة لدار
الحداثة

طريق المطار - شارع مدرسة القتال
بناية حلمي عويدات - تلفون
٨٣٣٩٨٩ - ص.ب. ١٤/٥٦٣٦

الطبعة الأولى
١٩٨٦

مقدمة

هذا كتيب صغير يشتمل على أربع محاضرات كان الاستاذ المستشرق الايطالي اغناطيوس غويدي قد ألقاها بلغة فرنسية على طلبة الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩، وكأنه كان يرمي أن تكون مادة تزود غير المختصين بفوائد تتصل بتاريخ بلاد العرب.

وهي من غير شك مما يحسن بالمختص أن ينظر فيها ويفيد منها. وإذا كنت قد أقدمت على تعريب هذه المحاضرات، فإنني أقصد إلى أن يكون لدى الدارس من أبناء العربية جميع ما حرره غير العرب في التاريخ والأدب واللغة وسائر المعارف الانسانية التي تتصل بالعرب والمسلمين عامة. إن الدارس العربي ليجد في هذه المصنفات فوائد جمة، ولا يضير أن يكون لنصر من هؤلاء الاعاجم المستعربين آراؤهم الخاصة التي لا نؤمن بها، ذلك بأن الخير كل الخير أن نقف على هذه الفوائد لنفيد منها، وندرك أن لغير العرب والمسلمين آراء خاصة

وطرائق خاصة حين يعرضون لجملة ما يتصل بالمعارف العربية والاسلامية .

ومن المفيد أن أعرض لمسألة يرددها المعنيون بالحضارة الاسلامية وهي أن «المستشرقين» يكيّدون للعرب والمسلمين، وهم حاقدون على الاسلام يدفعهم استعمار غربي ظالم . أقول : لقد استقر هذا في أذهان جمهرة الدارسين فصرفهم عن النظر في جملة ما كتب هؤلاء .

أقول : ليس من الحق أن نطلق هذه المزاعم، وأن نمضي في هذه الأقاويل قبل أن نستقري ما كتب هؤلاء «المستشرقون» ونستوفي الاستقراء لنهتدي إلى أن فئة منهم قد خالفت العرب والمسلمين فكُتبت ما كُتبت مما لم يتفق والعقيدة الاسلامية . وليس غريباً أن تكون هذه المخالفة رأياً خاصاً بداهم، على أي لا أستبعد أن يكون بينهم من دفعه حقه وتعصبه إلى الطعن والنيل مما يتصل ببعض آراء المسلمين وسلوكهم .

ولكنني أعود فأقول : وهل يضير أن يكتب هؤلاء بهذه الروح الحاقدة فننصرف نحن عمّا كتبوا، ونذهب بعيدين عمّا يكون لهذا الذي كتبوه من أثر؟ ما أظن هذا وجيهاً، ذلك أن علينا أن نعرف ما كتبوا ونتدبره لنتهيأ لنا أن نردّ عليهم آراءهم التي أثبتوها في مصنفاتهم . كما ينبغي لنا ألاّ يصرفنا هذا عمّا قدّم جهرتهم من خير لحضارتنا وتراثنا، ولو كان لي أن أعرض لهذا

لكان عليّ أن أفرد له كتاباً برأسه . لقد كان هؤلاء أوّل من نشر
ذخائرنا القديمة في التاريخ والأدب واللغة وسائر المعارف
الاسلامية ، ثم جئنا نحن بأخرة نقلدهم ونحاكيهم ونسير على
هديهم في نشر أمهات المصادر ، وحسبك أن تعرف أنهم نشروا
تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وصحيح الإمام البخاري
وقانون ابن سينا وكتاب سيويه وأغاني أبي الفرج وعشرات من
ذخائرنا النفيسة غير ذلك قبل أن ننهض نحن فننشر شيئاً من
هذا ، ولم نصل إلى ما وصلوا إليه في الضبط والإتقان . وما
زالت «المكتبة الجغرافية» هي المعول عليها في البحث والدرس
وأن ما نشره العرب من أجزاءها ليس بشيء .

لم أرد أن أعرض لهذه المسائل ، ولكني آثرت أن أمر عليها
مرّاً سريعاً لأقول أن فينا حاجة إلى ما كتب هؤلاء الأعاجم ممن
أفاد وخدم العلم وآخرين ممن قصدونا بسوء ، وخير لنا أن
نعرف ما كتبوه في حضارتنا بوجه عام .

ويعد أليس من المفيد أن نقف على هذه الأشتات القديمة من
حضارتنا التي أخلص في التوجّه إليها الاستاذ غويدي ؟

د . إبراهيم السامرائي

١٩٨١/٦/١٥

تمهيد

لقد اتصل بي جملة أصدقاء طيبين ورجبوا إليّ رغبة شديدة في أن أنشر محاضراتي الأربع التي توجهت بها إلى القارىء العام، والتي ألقيتها في الجامعة المصرية في القاهرة وذلك سنة ١٩٠٩. وقد رأيت أن استجيب إلى هذه الرغبة الشديدة فأنشر نص تلك المحاضرات على ما كانت عليه عند إلقائها. وإني لأطمع في سماحة القراء - ولا سيما الفرنسيين منهم - فأسألهم بعض العطف على مؤلف ليس له ما يشفع إلا أنه كتب بلغة غير لغته التي جبل عليها.

اغناطيوس غويدي

روما، نوفمبر ١٩١٩

إغناطيوس غويدي (١٨٤٤ - ١٩٣٥ م).

مستشرق إيطالي، عالم بالعربية والحبشية، والسريانية، من أعضاء المجمع العلمي العربي كان شيخ المستشرقين في عصره. ولد في رومة، وعهد إليه بتعليم العربية في جامعتها سنة ١٨٨٥ م. ثم كان استاذاً في الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ م، وكان يلقي محاضراته باللغة العربية في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية عند العرب، وعلاقة هذه المعارف بأوروبا ولا سيما إيطاليا.

ومن مصنفاته:

١ - محاضرات القاها في الجامعات المصرية (ط).

٢ - وجداول كتاب الاغاني (ط)

٣ - رسالة في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة.

٤ - بحث عن «الاستدراك على سيويه» للزبيدي.

٥ - بحث عن «الامثال» لابن القوطية^(١).

وله معجم كبير للغة الأحمرية، وله شرح لـ «بانت سعاد» و «وصف مدينة انطاكية»^(٢).

(١) الأعلام للزركلي ٣٣٦/٤.

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة ص ص ٧٢٤ - ٧٢٥ وتاريخ الادب لجرجي زيدان ١٨٠/٤

المحاضرة الأولى
في
شبه جزيرة العرب ما قبل الاسلام

الممالك في شمالي شبه جزيرة العرب وفي وسطها قبل ظهور الاسلام*

مملكة تدمر

حينما نتحدث عن العرب، تتجّه أفكارنا بصورة تلقائية نحو

* كنت قد ترجمت هذه «المحاضرات» وهيأتها للنشر وطلبت الى الشيخ عبد العزيز الرفاعي في المملكة العربية السعودية أن ينشره في مجلة ما ينشر من الكتب فوافق، ثم طلب إلي أن يزود النص بشيء من التعليقات المفيدة فأقررت على اقتراحه . وكأنه طلب إلى استاذ فاضل هو الدكتور علي شواخ إسحاق أن يقوم بهذا العمل فعلق تعليقات مفيدة مناسبة . ولم يكتب لهذا الكتيب أن يشر في السعودية ذلك أن الشيخ الرفاعي قد أوقف نشر الكتب كما أفادني، فطلبت إليه أن يرّد غرّة هذا الكتيب الذي بقي ما يقرب من ثلاث سنوات ينتظر الطبع . ولما وصل إليّ وحدته عتاجاً الى تحرير جديد بسبب ما عرض له، فحررته ثانية وأثبت أكثر تعليقات المعلق الفاضل الذي عوّل فيها كثيراً على «كتاب الفصل» للدكتور جواد علي وعلى غيره من المصادر، وقد أضفت إلى تعليقاته مثلها أو أكثر منها ابتغاء أن يظهر هذا الكتيب بهيئة ترضي الدارسين . و «المحاضرات» في الأصل خلو من أي تعليق .

مؤسس الدين الإسلامي^(١)، وكذلك نحو الفتوحات الكبرى في الأحقاب الأولى للخلافة الإسلامية، أو قل نحو الخلافة نفسها، التي هي في نظر المشاركة كما في نظر الغربيين كأنها حلم إشراقاً وعظمة. ولكننا ننسى بيسر، شبه الجزيرة ما قبل الإسلام، وذلك خطأ كبير منا. وقد نضع جانباً مظاهر الحضارة في الجنوب فلا نتكلم عليها، تلك التي نقوشها وكتاباتنا ترقى في الأقل إلى القرن الثالث قبل التاريخ الميلادي، ثم تلك الدويلات التي قامت على حافة الصحراء في الشمال أو في الشمال الشرقي من بلاد العرب، ثم أيضاً تلك التي قامت في الوسط من شبه الجزيرة حيث تطورت وتأكدت مميزات الجنس العربي. وليس هذا شيئاً قليلاً في التاريخ العظيم للإسلام.

وفي التاريخ أمثلة منها: سبتيوس أودناتوس^(٢) قاهر ساهور

(١) قول الأستاذ غويدي «مؤسس الدين الاسلامي» قد يقشع منه المسلمون، ذلك أن النبي عمداً - ﷺ - نبى أوحيت له الرسالة الاسلامية.

(٢) هو أدينة زوج الزباء، كان شجاعاً، أراد الانتقام لوالده (سبتيوس خيران) الذي قتله القائد الروماني (روفينوس) فاتصل بساهور ملك الفرس، ولكنه رده وحقر رسله، فسار إليه أدينة الى المدائن وحاصرها سنة ٢٦٤ م، وكاد ساهور يلتصق منه الأمان لولا حدوث حادث أكره أدينة على ترك الحصار والتراجع. وقد اتخذ لنفسه لقب ملك الملوك. ويروى أن مجلس الشيوخ الروماني منحه لقب «اغسطس» فصار مساوياً للقيصر، وأمر بوضع صورته مع صورة الامبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٩٥/١ لجواد علي.

الأول سنة ٢١٦ م، وزميل الأوغسطين كان شيئاً من تاريخ الرومان. ولم يكن أقل شجاعة من رئيس من رؤساء العرب، وأنه السابق المتقدم الذي جاء بعده صفوة من القواد العرب كخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وعمرو بن العاص وأضرابهم من القواد العظام الذين هزموا في حقبة قصيرة من الزمن جيوشاً عظيمة، وسيطروا على امبراطورية الساسانيين وعلى جزء عظيم من امبراطورية الامبراطور البيزنطي. إن اسم هذا الامبراطور عربي الأصل ذلك أن «أودناتوس» يعني «أذينة»، وأن اسم زوجته «زنوبيا» وهو شيء من الاسم العربي «زينب»، أما الاسم «الزباء»^(٣) الذي تسميه به الأسطورة العربية فهو اسم لأحد أسلافها. وإن ابنهما الذي خلف «أودناتوس» يسمى «آثنادور»^(٤)، ويعني «هبة آثنا»، وليس هذا إلا ترجمة للاسم العربي الذي يعد جدّه، وهو «وهب اللاب» أي «هبة اللات»، وهذا يعني أن «اللات» وهي إلهة شاعت عبادتها في شبه الجزيرة العربية.

(٣) كان هذا قد خالف فيه غويدي لكثير من المؤرخين الذين ذهبوا الى أن «الزباء» هي «زنوبيا» زوجة «أذينة». وقد ذهب غويدي نفسه الى هذا بعد صفحات قليلة في الكلام عليها. وفي كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» فصل تحدث فيه المؤلف عن سيرتها وفتوحاتها وحروبها مع الرومان. ١٠٣/١.

(٤) وهو يعرف في اليونانية بـ «أثينو دورس» (Athenodorus)، والزباء أمّه. وكان قاصراً، وقد تولّت الوصاية عليه.

إن تاريخ شبه الجزيرة العربية القديمة كتاريخ البلاد العامة بصفة شاملة محكوم بوجودها الجغرافي المشترك. إن الصحارى العظيمة في الشمال والشرق تفصل شبه الجزيرة عن سورية وعن بلاد بابل، وهي بذلك تحمي سكانها من خطر غزو الأعداء، كما كانت من العوامل التي عملت على الحفاظ على لغتهم وعلى خصائصها الوطنية. إن لغة البابليين كما نعرفها في النصوص التي قد ترقى إلى أربعين قرناً قبل التاريخ المسيحي، كانت قد عانت تبدلات عميقة باعتبار الصورة البدائية الأولى للغات السامية، في حين أن العربية في القرن السادس الميلادي لم تكد تبعد في بعض أقسامها المهمة نوعاً ما، عن بنيتها النحوية، وذلك في مادة «الفعل»، وليس ذلك إلا بفضل عزلة أهلها العرب واستقلالهم. على حين أنهم منذ أن اختلطوا مع غيرهم من الشعوب بعد الاسلام، عرض للغتهم الشيء الكثير من التحولات التي كان بعضها مهماً.

لقد علمنا من الحوليات الآشورية أن الآشوريين قاموا بفتوحات حقيقية في عهد الملك سنحاريب، والملك أسرحدون، والملك آشور بانيبال، ثم الملك نبوخذ نصر، على أننا نعرف كم علينا أن نحذر ونشك في هذه الحوليات «الرسمية» للآشوريين والبابليين. وعلى أية حال لم تكن تلك الفتوحات إلا غزوات، وإن سيطرتهم وسيادتهم كانت اسمية تقريباً، ولم تدم إلا حقبة يسيرة من الزمان.

وكان الرومان على عكس أولئك الآشوريين، قد عرفوا الفتوحات واستطاعوا أن يفعلوا ذلك ويخضعوا بتنظيم جميع العالم المعروف في عهدهم، ولكنهم لم يقوموا بذلك إلا في محاولة واحدة اندفعوا فيها في جنوبي بلاد العرب في عهد الامبراطور «أوغست» ولم يكتب لهم أي نجاح. وان «إيلْيوس غالوس» قد تقدّم في جنوبي بلاد العرب، وحاصر «مأرب» عاصمة السبئيين، غير أنه اضطر بعد وقت قليل إلى رفع الحصار، وكان جيشه كثير العدد حسن العُدّة، ولم يكن في هذا الجيش إلا عدد قليل من المصريين.

إنه مع ذلك غزو بطيء ولكنه إيجابي، قد خضع له العرب الشماليون شيئاً فشيئاً، وذلك يتمثل في أفكار دينية ومظاهر حضارية متفوقة للبلدان المجاورة لهم. وهذه الأفكار للبرزنطيين في الغرب، والساسانيين في الشرق، وذلك في عصر بعيد في القدم، كما أحسّت بذلك الدول المزدهرة في اليمن في الجنوب.

ولم تلبث أن تكونت عمالك عربية في الشمال والوسط، وبدأت تأخذ شكلاً منظماً أولاً عمل بقوة على تقدّمها. أنها ممالك الحيرة والغساسنة وكندة التي قامت في قلب شبه الجزيرة العربية. وسنذكر بإيجاز الأحداث الأكثر بروزاً لهذه الممالك مستخلصة من الأساطير التي أوصلها الشعراء والمؤرخون العرب ابتداء من القرن السادس الميلادي. ذلك أن أقدم وثيقة

في اللغة العربية لا تتجاوز هذا القرن الذي هو عصر البطولة للعرب كما يقول «رينان»^(٥).

ولنبادر بالقول إلى أننا نعرف الآن لهجة عربية يمكننا أن نصفها «بدائية أولية» (archaïque) إلى جانب أشعار ما قبل الاسلام. إن في «حوران» في الجنوب الشرقي من دمشق وإلى شمالي الحجاز قد اكتشف منذ بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر كتابات اعتبرت بدائية، وأنها لغة دارجة متداولة، إن لم تكن اللغة الأدبية في هذه الامكنة. وربما كانت هذه خطوط وإشارات لجماعة من الرعاة وليست كتابات على نحو ما رأينا الكثير من ذلك في وادي مكّتب في سيناء.

ليس في هذه الخطوط والإشارات كثير من الفائدة من الناحية التاريخية، ولكنها ذات قيمة من الناحية اللغوية. إنها العربية الشمالية الحقيقية، أو أنها، على وجه التحديد، لهجات دارجة تكلم بها أهلها إلى جانب اللغة التي كان النبطيون وغيرهم من العرب يتكلمون بها.

إننا نميز فيها ثلاث مجموعات هي :
الصفوية^(٦)

(٥) مستشرق فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرف بأرائه الغريبة في الشعوب السامية.

(٦) الصفويون نسبة إلى أرض الصفاء، وهم أعرب ورعاة كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للبهاء والكلأ، وعلى هذا فهم قبائل متنقلة رعاة. وقد =

الليحيانية

الثمودية

وتمثل الأخيرة لغة آل ثمود المشهورين بين العرب، وأن وثيقة صغيرة قد اكتشفت وعرفت من هذه اللغة تعدّ أول وثيقة تحمل تاريخاً. لقد عرفنا الثموديين معرفة كافية مما ذكره المؤلفون الإغريق والرومان في القرن الخامس الميلادي، وإن الثموديين كانوا يؤلفون جماعة الجيوش العربية التي استخدمها الرومان باسم : Equites Saraceni Thamudeni .

ومن خصائص هذه اللهجة القديمة الشمالية صيغة أداة التعريف وهي «ها»^(٧) كما في اللغة العبرانية، وليست «أل» كما

= ذهب علماء الكتابات الصفوية الى طابعها الشخصي الذي تحمله، أي أنها تخلو من دلالة سياسية أو عسكرية .

(٧) من المفيد أن نتوسع قليلاً في «أداة التعريف» فنقول: أن مكان أداة التعريف هو آخر الاسم في كثير من اللغات السامية، ففي لغات اليمن الجنوبية تكون أداة التعريف (آن) وتلحق آخر الاسم (غويدي، المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية ص ١٤) . وربما كانت هذه «هس» كما في العبرانية القديمة . ثم بدلت مكانها فصارت تنصدر الاسم كما في اللهجة الصفوية والثمودية مثل «هجممل» ومعناه «الجميل» . و «هييت» ومعناه «البيت» . والتشديد في الحرف الأول دليل على النون المحذوفة كما هي الحال في العبرية . ولما غيّرت هذه الأداة مكانها خصت الكلمة المنكرة بالميم . والليحيانية أيضاً تتوصل الى التعريف بالهاء المفتوحة في أول الكلمة على أنه وحده في النفوس أداة التعريف في كلمة منونة وذلك نحو «هصلمن» أي الصنم .

في العربية نحو «فَرَس» التي تكون معرفة «هافرس»^(٨).

وفي وثيقة صفوية نجد أن المدعو هامل بن سَلَم اشترى من المدعو «حَنِي» الفرس بخمس «قطع معدنية» بقوله: أخذها

= وربما كانت هذه الأداة هي الهمزة والميم في لغة حمير من لغات الجنوب كما تذكر النصوص العربية. ويبدو من هذا العرض أن النون والميم متقاربان متبادلان، فقد روى النمر بن تولب الحديث المشهور: ليس من أمير امصيام في امسفر (ابن يعيش، شرح المفصل «طبع أوروبا» ص ١٢٢).
وتفرد العربية الشمالية عن أخواتها بهذه الأداة، ولكن الناظر في الأسانيد يجد أن النحويين على خلاف، فإن «أل» بجملة حرف تعريف عند الخليل وسيبويه (حاشية الصان ١/١٧٦). وفي «شرح الرضي على الكافية ٢/١٣٠» إن اللام وحدها أداة التعريف عند سيبويه. وجاء في هذا الكتاب أيضاً: وذكر المبرد في كتاب «الشافى» أن حرف التعريف الهمزة المفتوحة وحدها وإنما ضم اللام لثلاث يشبه التعريف بالاستفهام (المصدر السابق).
على أننا نرى أن اللام ربما كانت بدلاً من النون التي وجدناها في اللغات السامية، كما أن هذه اللام تطوى في اللفظ مع الاصوات «الشمسية»، ويقتضي هذا الطي ضرباً من التشديد والضغط على المقطع الأول.
أقول: رأي المبرد هذا جميل ذلك أنه يوصلنا بحقيقة هذه الأداة في اللغات السامية التي يسري عليها «نحو مقارن» غير أنى أتوقف في كتاب «الشافى» هذا ذلك أنى لم أجده في المعروف من آثار المبرد في المصادر التي ترجمت له. ولوقلت: أنه «الكتاب الشافى» وليس كتاب «الشافى» لأقول أن الرصي أراد به «الكامل» لتوقفت أيضاً، وذلك لخلو «الكامل» من الكلام على «أداة التعريف».

(٨) جاء في كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١/١٤٨» وكأنه اجتهد المؤلف، وهو: أن «أل» قبل اسم القبيلة في كثير من الكتابات =

مَحْنِي هافرس بخمسة «أماني» (Amani?) akhadha mihannay
 hafaras bikhamsat amni وأن آخر يدعى أنعم بن قاحش قد
 ذكر أنه غنم غنيمة في سنة حرب النبطيين «وغنم سنة حرب
 نَبَط Waghanama sanat harb nabat، إن هذه الوثيقة ذات
 أهمية خاصة بسبب ما تحمل من تاريخ فيها مما قد يكون من
 المحتمل موافقاً لسنة ١٠٦ إبان حكم تراجان Trajan.

إن هذه الخطوط تنتهي في الغالب بالكلمات الآتية: «فوها
 اللآت سلام» Fuha Salam Allat (fa)، والتي من الممكن أن
 تترجم بقولنا: «تحية أمام اللات».

نرى في هذه الوثيقة اسم الإلهة العظيمة «اللآت». وبما
 يلفت النظر أن هذه الوثيقة قد كتبت بالخط العربي الجنوبي،
 وليس بالخط الآرامي الذي كان شائعاً منذ القرن الخامس
 الميلادي في هذه الجهات إلى ما وراء الفرات. وهذه الظاهرة
 التي تتصل بوجود الخط الجنوبي تجعلنا نفترض أنه منذ بداية

= الصفوية يشير إلى أن لغة هذه القبائل الشمالية عربية شمالية هي «لغة
 القرآن». وهو يشير إلى هذه القرابة ويستدل بما ورد من الاعلام ومنها
 «قصيو» وهو «قُصِي»، و«قصير بن كلبو» وهو قصي بن كلاب..
 ويرى جماعة من أهل العلم بالكتابات السامية القديمة أن الصفويين جاءوا
 من شبه جزيرة العرب وقطنوا في الشمال في منطقة «الصفاء».
 ومصطلح «الصفويين» مما أطلقه «هاليفي» وهو يبحث في هذه الكتابات
 والنقوش الشمالية في «اللجة» و«حوران».

التاريخ المسيحي كان للحضارة في شبه الجزيرة العربية مركز رئيس في الجنوب أي بلاد اليمن، وكان تأثيره يتجاوز الجهات الجنوبية الى المراكز العربية في الشمال.

مملكة الحيرة

ولنعد إلى الممالك التي أنشئت في شمالي بلاد العرب، ومنها تلك التي نشأت في «الحيرة». إن الحيرة في الأصل كلمة سريانية وتعني «الحصن» أو المعسكر وهي «حَيْر»^(٩) في النطق السرياني. والمدينة من الحواضر ذات الموقع الحسن، وأن الهواء فيها نقي حسن وذلك كما في المثل القائل:

إن ليلة ونهاراً يقضيان في الحيرة لأحسن من تناول الأدوية طوال عام كامل^(١٠).

إن هذه الصفات الجيدة البيئية قد عملت على جذب

(٩) ذهب أهل العربية الى أن «الحيرة» مادة عربية، وذهب آخرون إلى أنها سريانية. وأنا أقول أن كلا الطرفين على صواب والكلمة سلمية قديمة وان مادة (ح ي ر) تفيد المكان في هيئه مخصوصة.

(١٠) هذا معروف لدى الدارسين العرب فقد أثر عن الاوائل انهم قالوا: «يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنه» انظر الاصططحي، المسالك ص ٨٢ (عن المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) وفي «خاص الخاص» للثعالبي كلام في هواء الحيرة في مجلس الخليفة هارون الرشيد.

السكان الكثيرين إلى الحيرة مما أدى إلى ازدهارها، وهؤلاء السكان هم في الغالب من قبيلة تنوخ الذين ضربوا خيامهم فيها، وكذلك من «العباد» الذين يتنسبون إلى قبائل مختلفة مسيحية، وهم يؤلفون جملة سكان المدينة، ثم جماعة أخرى من جملة قبائل مختلفة متحالفة فيما بينها. والعباد جمع «عبد» ولعل الاسم الكامل لهم «عباد الله» أو بالأحرى «عباد المسيح»^(١١). وهو الاسم الذي ربما أطلقوه على أنفسهم، والذي جعلهم يفخرون به وسط السكان الآخرين الوثنيين وعبدة الأصنام الذين يحيطون بهم.

إننا لا نعلم بصورة أكيدة الحقبة الأولى لمملكة الحيرة، وكذلك في العادة كل البدايات التي تتصل بالممالك والمدن تقوم الأسطورة مقام التاريخ. العلاقة الغرامية بين عدي بن ربيعة ورقاش أخت جذيمة الابرش^(١٢)، وغضب عدي هذا أول الأمر، ثم حبه العاطفي لابن أخته عمرو بن رقاش^(١٣)، والمغامرات العجيبة لهذا الأخير الذي اختطفه الجن^(١٤)، ثم الحروب بين جذيمة وبين عمرو بن الضرب وبين الحسنة «الزباء» (زنوبيا

(١١) انظر مادة «عبد» في «تاج العروس».

(١٢) انظر أخباره في تاريخ الطبري ٢/٢٨، وما بعدها. وانظر مروج الذهب ١٦/٢.

(١٣) انظر الاغانى ٧٢/١٤.

(١٤) انظر تفصيل ذلك كله في كتاب الأخبار الطوال ص ٥٦.

عند المؤلفين القدماء)، جميع هذا من قبيل الأساطير التي يصعب علينا أن نفيدها منها جانباً تاريخياً مما امتزج بالأسطورة.

ومنذ مجيء الأسرة اللخمية، أو بني نصر صرنا نعرف شيئاً عن تاريخ الحيرة، وبإمكاننا أن نحدد تاريخياً هذه البداية بالنصف الثاني من القرن الثالث المسيحي، غير أن الملك الأول الذي اكتسب في عصرنا بعض الشهرة وهو امرؤ القيس^(١٥) الأول، وذلك لأن إليه من غير شك ينبغي أن ننسب نقش «النمارة»^(١٦) الذي وجدته المسيو «دوسو»^(١٧) في بلاد الصفا من شمالي سورية^(١٨). وقد أغنى هذا النقش مجموعة النقوش العظيمة في متحف اللوفر، وتأتي أهمية هذا النقش بماله من الناحيتين التاريخية واللغوية. انه يبدأ بهذه الكلمات:

«في نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كلها»^(١٩).

(١٥) وهو ابن عمرو بن علي بن نصر بن ربيعة، وعمرو هذا هو ابن احت جذيمة الذي ذكره المؤلف قبل سطور باسم عمرو بن رقاش. انظر أحباره في الطبري ٦٤/٢، وقد نعت بالمحرق وفيه خلاف.

(١٦) وعلى هذا يكون امرؤ القيس أول ملك من ملوك الحيرة يصل خصره البنا مدوناً وكذلك خبر وفاته سنة ٣٢٨ م. انظر الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٨٩/٣

(١٧) هورينة دوسو في كتابه «العرب في سورية قبل الاسلام».

(١٨) «النمارة» حرة تقع في جنوب سوريا شرقي جبل الدروز لا شمالها.

(١٩) ما كتب على القبر مؤلف من خمسة أسطر، وهذا نصها:

١ - في نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج. =

إن هذا النقش يشتمل على عربية قديمة ذات كلمات دخيلة من أصول أجنبية نحو «نفس»، وتعني «بناء لقبر ظاهر»، وكذلك كلمة «بر» بمعنى «ابن»، وهاتان الكلمتان في هذا النص يجعلانه بالأحرى اللغة الفصحى الأدبية، أو لغة الكتابة التي كانت خاضعةً للتأثير الآرامي، وليس اللغة المتداولة في درج الكلام اليومي في هذه الحقبة في هذه الأمكنة. وليس من غرابة في أن يكون لهم غلط من لغة للكتابة وآخر يدرج به الناس في كلامهم، فقد كان للنبطيين شيء من ذلك في النبطية

= ٢ - وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مدححو عكدي وجا

٣ - بزجى في حيج بجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل نيه.

٤ - الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ مبلغه.

٦ - عكدي. هلك سنة ٢٢٣ يوم بكسلول بلسعد ذو ولده.

انظر العرب قبل الاسلام لريدان ص ٢٠٣، ولفسون ص ١٩٠ (تاريخ اللغات السامية)، ريه دبسو، العرب في سورية قبل الاسلام ص ٣٣ عن «المفصل» لجواد علي ١٩١/٣.

وجاء في «المفصل»: أن الترجمات اختلفت لهذا النص، وكأنه صاعه بلغة عربية معاصرة على النحو الاتي:

١ - هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي مال الناح.

٢ - وملك الاسدين ونزار وملوكهم، وهزم مدحجاً بقوة وقاد.

٣ - الظفر إلى أسوار نحران، مدينة شمر، وملك معداً واستعمل أثناءه على.

٤ - القبائل. وكلهم لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.

٥ - في القوة. هلك سنة ٢٢٣ يوم بكسلول. ليسعد الذي ولده

انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩٢/٣ - ١٩٥، ٤٣٧/٣.

التي من أصل عربي . ولما كانت لغة أهل الحيرة لا تكتب أي أنها لغة منطوق بها فقط في هذه الحقبة ، فإن النقوش لا بد أن تكون بلغة آرامية حيث يلمح فيها غالباً شيء من لغة عربية .

إن الملك امرء القيس الذي أشارت إليه الكتابة المذكورة آنفاً كان يعد نفسه ملك جميع العرب ، إنه سيد جملة قبائل هي بنو أسد والنزاريون ورؤساؤهم جميعاً ، وكذلك قبيلة مذحج ، وكان مقره في نجران في مدينة شامر Samir .

وبحسب التزامن يمكن أن نميز في «شامر» ملك السبئيين شامر يجرعش^(٢٠) الذي حكم مع أبيه ابتداءً من سنة ٢٧٠ م ، كما انفرد بالحكم ابتداءً من سنة ٢٨١ م ، وكانت نجران المدينة الشهيرة في البلاد العربية الجنوبية .

كان الخط نبطياً مع خصائص غريبة مثل رسم (لا) الذي يقرب كثيراً من نظيره في العربية . وأما ما يزيد في أهمية هذا النص المكتوب فهو التاريخ الذي يشير إليه . لقد كان العالمان «إيشهورن» و«كوسان دي پرسفال» قد حدّدا بداية حكم امرء القيس الأول في أول القرن الرابع الميلادي ، وهو الذي تدعوه الأخبار العربية عامة «ابن عمرو» ، وهكذا يمكن أن

(٢٠) لعله يجرعش ، والمثبت في النص من خطأ الطبع ، و«يجرعش» هذا هو المعروف بـ «شمر يجرعش» لدى المسلمين . انظر الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩٧/٣ .

يكون أكيداً في تاريخ الحيرة أن «مَر القيس» الذي ورد في نقش النمارة (وهو النص المشار إليه هو امرؤ القيس في الجداول التاريخية العربية، وإن التاريخ الصحيح لوفاته هو السابع من كانون الأول سنة ٣٢٨ م^(٢١)، وأنه البداية المهمة جداً في تعيين تاريخ ملوك الحيرة^(٢٢).

إن الحفيد المتأخر لامرئ القيس هذا هو النعمان الأول الذي حظي بشهرة ذات دوي كبير في الشعر العربي القديم، وفي الأخبار التاريخية الأسطورية من تاريخ العرب. وكان تحت إمرته كتيبتان من الفرسان تدعى الأولى «الدوسر»^(٢٣)، وتدعى الثانية «الشهباء»^(٢٤)، وبإمكاننا أن ندرك الأهمية التي أولاها النعمان إلى هاتين الكتيبتين^(٢٥) في صراعه مع القبائل المجاورة حيث كان للفرسان دور بارز فيه.

(٢١) كانه لا خلاف بين التاريخين، فالذي ذكر من سنة (٢٢٣) هو من تقويم بصري أي في اليوم السابع من شهر كانون الأول من سنة ٣٢٨ م.
(٢٢) وجاء في «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩٧/٣» إن المؤلف جواد علي عدّه أول نص عربي جاهلي يشير إلى حرب نشبت بين مملكة الحيرة ومملكة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمت في عهد أول ملك من ملوكها وهو «شمر يهرعش».

(٢٣) وأهلها تنوخ، وفي مجمع الامثال ٧٨/١ «ايطش من دوسر».
(٢٤) وأصلها من الفرس. انظر تاريخ الطبري ٧٣/٢ و ٦٧/٢
(٢٥) وقد نسب له أيضاً خمس كتائب هي: الرهائن والصنائع والأشاهد والكتيبتان المذكورتان، وذكر أنه كانت له كتيبة تسمى الوضائع... انظر بلوغ العرب ١٧٦/٢.

كانت هذه المملكة خاضعة للساسانيين إلى الحدّ الذي كلف يزديجرد سنة (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الامبراطور الساساني النعمان، بأن يقوم بتهذيب ابنه بهرام جور^(٢٦). إن تشييد النعمان «للخُورنُق» وكذلك «للسدير» مما أضاف إشراقاً إلى عصر النعمان هذا.

إن كلمة «خُورنُق» من غير شك إيرانية، وقد لزم أن يكون أصلها القديم «خُورنقا»^(٢٧)، التي اقترح النعمان أن يكون معناها: «الذي يغطّي». لقد كان الخورنق من أعاجيب الفن الذي يرجع الفضل فيه إلى المهندس المعمار اليوناني الذي يدعى «سِنَمَار»^(٢٨) إليه الاسطورة، وتحكي هذه الاسطورة: أن فكرة كثيفة عرضت للنعمان وهو في أعلى هذا القصر العظيم

(٢٦) وأمره ببناء الخورنق سكناً له، وأنزله إياه، وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب. ذكر ذلك جواد عن تاريخ الطبري ٧٣/٢.

(٢٧) والخورنق: نبت. والخورنق: اسم قصر بالعراق، فارسي معرّب، والخورنق نهر. والخورنق: المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب. أصله خرنكاه، وقيل خرنقاه معرّب، قال الأعشى:
ويُجَبَى إليه السُّيْلُحُون ودونها

صريفون في أنهارها والخورنُق

انظر «اللسان» (خرنق).

(٢٨) معمار روماني ارتبط اسمه بالخورنق الذي بناه النعمان، ومع ذلك فقد أمر به النعمان فطرح من أعلى القصر. ويضرب بهذه النهاية المثل في أدب العرب فقالوا «جزاء سِنَمَار»

الذي كان ينعم فيه بسلطانه وغناه فقال في نفسه : أن جميع هذا السلطان وهذا الثراء هو اليوم لي وسيكون غداً إلى آخر . فتولد له في تلك الحال فكرة التخلي عن العالم وقضاء ما بقي له من حياته في العزلة والعبادة :

فتفكر رب الخُورنق إذ أشـ
رَفَ يسوماً وللهدى تفكير^(٢٩)
سرهُ ماله وكثرة ما يـ
ملك والبحر معرضاً والسديرُ
فارغوى قلبه وقال : وما غبـ

طة حيّ إلى الممات يصير^(٣٠)
إن هذه الاساطير التي تتصل بالملوك ذوي السلطان ومؤداهـ
أنهم فجأة يتخلّون عن السلطان ويخلدون إلى عزلتهم^(٣١)
وعبادتهم ، كثيرة في التاريخ القديم .

ومثل هذه الأسطورة التي تحكى عن النعمان ما حُكي عن
«كالب» ملك الحبشة الذي تحوّل في آخر حياته إلى راهب بعد
أن قهر ملك اليمن وبلغ أوج مجده . أن المصنفات العربية تشير

(٢٩) الخورنق قصر قريب من الحيرة ، أما السدير فكان على مسافة بعيدة بينـ
وبين الشام . وقد أشار المتنخل الشاعر الجاهلي إلى القصيرين في شعره .

(٣٠) الأبيات في جمهرة من مصادر الشعر الجاهلي . وقد اثبتها جواد علي في
«المفصل»

(٣١) انظر جبر زهد النعمان في الطبري ٧٣/٢ وما بعدها .

إلى أن سقراط وأفلاطون قد تحولوا إلى رجلي دين في آخر حياتهما.

وقد كان النعمان وثنياً، وقد اضطهد النصرانية، ومنع العرب من التوجه إلى القديس (سيمون) (S. Simon Stylite) الناسك وسماع موعظته. غير أن القديس بدا له في الحلم وعنفه بشدة وضربه بالعصا عدة ضربات. وقد سمح النعمان بعد قليل بممارسة النصرانية في الحيرة، وأذن أن تبنى فيها الكنائس، واستقبل القسس والبطارقة. وبإمكاننا أن نستنتج أن النعمان بقي وثنياً^(٣٢) على منحه للنصارى الحرية الدينية، وهذا ما أكدته المؤلفون العرب. ولهذا الحقيقة أهميتها، ذلك أن إثبات الديانة المسيحية يعني رجحان طائفة «العباد» الذين يؤلفون السكان المسيحيين في هذه المدينة، الذين يمارسون الأثر العظيم على أفكار العرب لهذه النخبة القليلة من أهل المدينة.

وخلف النعمان نحو سنة ٤١٨ م ابنه المنذر الأول الذي حكم إلى غاية سنة ٤٦٢ م، ويسميه المؤلفون الإغريق والسريان «مُندار»، في حين أن الاسم عند العرب بصيغة اسم الفاعل. لقد امتاز هذا الأمير بمزايا عالية جداً، وفي عهده لعبت المملكة دوراً مهماً في أحداث ذلك العصر. لقد أجبر

(٣٢) أشار ابن خلدون في تاريخه ٢/٢٧١ إلى تنصر النعمان كما أشار إليه لويس شيخو في شعراء النصرانية، وانظر «المفصل» لجواد علي ٧/٢٠٤.

رجال الدين الفرس على تتويج الملك بهرام جور الذي سبق ذكره، وكانوا قد استبعدوه ليمنحوا حق الجلوس على العرش إلى أمير ساساني آخر. وقد ادعى مؤلفون عرب أن الذي قام بهذا المسعى هو النعمان وليس المنذر الذي أيد بهرام جور، ومن أجل ذلك نحن أمام قضيتين^(٣٣)، بيد أن اتفاق الزمن يرينا أن القضية الثانية غير صحيحة. لقد ساعد المنذر أيضاً بهرام جور في حربه مع البزنطيين، غير أن ذعراً واضطراباً قد سيطرا بصورة مفاجئة على جنود المنذر الذين اعتقدوا أن حركة التفاف قد طوّقتهم، وأنهم قد تدهوروا في النهر، وهكذا غرق الكثير منهم في الفرات وذلك في سنة ٤٢١ م.

لقد شارك ملوك الحيرة في الحروب بين الساسانيين والبزنطيين، وإن النعمان الثاني حفيد المنذر، كان قد جُرح في معركة الخابور بالقرب من «سيرسيوم»^(٣٤)، وتوفي بعد ذلك إثر

(٣٣) أول من فطن إلى هذا التناقض ابن الأثير الذي نقل الروایتين. لقد ذكر أن بهرام جور قد سُلّم إلى المنذر بن النعمان، وذكر أن يزدجرد الأثيم سُلّم بهرام إلى النعمان بن امرئ القيس. ولا شك أن بعض العلماء قال هذا، وبعضهم قال ذاك إلا أنه لم ينسب كل قول إلى قائله. انظر ابن الأثير، الكامل ١٦٢/١.

ويجمع اليعقوبي الروایتين السابقتين شكل مختصر، وفيه: يدفع يزدجرد ابنه بهرام إلى النعمان وساعده المنذر فيما بعد في استرجاع التاج. انظر تفصيل الخبر في «المفصل» لجواد علي ٢٠٧/٣.

(٣٤) لعلها «قرقيسيا» كما يشير إلى ذلك المؤرخون، وهي مدينة ظلت معروفة =

جراحه وذلك في سنة ٥٠٣ م. وأشهر ملوك الحيرة من غير شك هو المنذر الثالث المتوفي سنة ٤٥٤ م. بعد حكم دام ٥٠ سنة. وقد وصفه (Procopé) بروكوب نفسه بقوله: كان ذكياً جداً وقائداً عظيماً. ومنذ حكم الامبراطور قسطنطين (٥١٨ م) خرق السلام بين الساسانيين والبيزنطيين، وقد شارك المنذر بنشاط في الحرب، ولم يحجم قسطنطين عن أن يرسل مبعوثاً (دبلوماسياً) لهذا الملك الصغير، ملك الحيرة من أجل أن يعيش الطرفان بحرية.

وفي الوقت الذي استقبل فيه المنذر^(٣٥) مبعوث جستنيان استقبل أيضاً الممثل الدبلوماسي لملك اليمن. وكان المنذر قد لعب دوراً كبيراً في حرب كوياد (Cobad)، فقد هاجم البلاد الأفريقية، وكان في كل الظروف بمنجاة من مطاردة البيزنطيين.

= بهذا الاسم إلى أيام العباسيين، وتسمى اليوم «البُصيرة» وهي على مسافة قريبة من مدينة دير الزور على الحدود العراقية السورية. انظر خبر المعركة في «المفصل» لجواد علي ٢١٦/٣.

(٣٥) لقد تمكن المنذر من أسر قائدين رومانيين سنة ٥١٩ م هما «ديموستراتوس» و «تيموستراتوس» ويوحنا، وأراد القيصر أن يَفك أسر هذين القائدين، ويعقد صلحاً وحلماً بين الروم والمنذر فأرسل على ما يظهر - رسولاً خاصاً إلى المنذر هو إسماعيل والد المؤرخ «نونوسوس» ومعه شمعون الأرشامي و «سرجيوس» اسقف الرصافة وذلك في سنة ٥٢٤ م. انظر المصدر السابق ص ٢١٩.

مملكة الغساسنة

لقد كان في هذه الحقبة على حدود البزنطيين دول عربية أخرى قد أصبحت ذات قوة بحيث غدت منافسة لمملكة الحيرة، وقد أفاد البزنطيون من هذا الحدث لصالحهم ضد الساسانيين وأتباعهم. وهذه الدولة الجديدة^(٣٦)، وهم اللخميون* الذين أسسوا دولة الغساسنة. إن تاريخ الحقبة الأولى لهذه المملكة تغلب عليه الأساطير على نحو ما كانت الفترة الأولى من تاريخ مملكة الحيرة.

لقد جاء الغساسنة من جنوبي شبه الجزيرة العربية، واستقروا في بلاد بصرى التي وجدوا أنها كانت مسكونة من قبائل عربية^(٣٧) التي كانوا قد خضعوا لها خلال فترة زمنية معروفة. وفي قرابة القرن الرابع كان ثعلبة^(٣٨) بن عمرو قد تسلم من البزنطيين الحماية للبلاد التي جعلته قادراً على تأسيس مملكة الغساسنة بعد فترة من الزمن، غير أن الحكم انتقل بعد

* لعل المؤلف أراد «التوخين» لأن «اللخيين» هم الذين أسسوا مملكة الحيرة.
(٣٦) وعرب هذه الدولة يمايون وقد عرفوا بـ «آل غسان» و «آل جفنة» و «الغساسنة».

(٣٧) ويدعون بـ «الضجاعمة» وهم من سليح بن حلوان بن قضاة.
(٣٨) ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن عمرو بن عدي بن مازن بن الأزد، ومن نسله كان ملوك غسان

ذلك إلى آل جفنة، ومهما يكن من شيء، فإن الغساسنة منذ النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي بدأوا يظهرُونَ تاريخياً حلفاء للبيزنطيين.

وفي سنة ٣٧٣ م، ومن المحتمل بعد موت الحارث الثاني تسلمت السلطة أرملته مارية أو ماوية^(٣٩). وكانت هذه الأميرة محاربة حالفها النصر في كل موقعة كما تشير الأخبار، وأنها أجبرت البيزنطيين إلى أن يطلبوا الصلح، وأنها قبلت ذلك بشرط أن يسلموا لها الأسقف^(٤٠)، في شخص رجل مقدس يدعى موسى. وهذه الأسطورة المتصلة بالتاريخ الكنسي ترينا تقدم النصرانية بين العرب في هذه البلاد، كما ترينا كيف انعطف أفكارهم شيئاً فشيئاً فعدلوا عن عبادة الأصنام ليعتنقوا عقيدة تتفوق على ما هم فيه.

وقد حمل بعض ملوك الحيرة وكذلك بعض ملوك غسان لقب «مُحَرَّق» ولا سيما الملك جفنة الثاني، وليس لنا إلا أن نفسره، كما يدل عليه في العربية، أنه الذي يُحَرَّق ويشعل ناراً

(٣٩) في الفصل، لحواد علي ٣/٣٩٧: أن حكم ماوية كان قسراً تولي الغساسنة.

(٤٠) حاربت الملكة مارية الروم مراراً، وانتصرت غير مرة، ثم تصالحت معهم. وكان من جملة ما اشترطته عليهم أن يُسَقَّف على عربها راهب اسمه موسى كان يتعبد في بادية الشام، فوافق القيصر على ذلك، وكان هذا الراهب كاثوليكياً معارضاً للمذهب أوريوس.

عظيمة، وقد قيل في تفسير ذلك أقاصيص تتصل بالملوك الذين حملوا هذا اللقب، ولكن هذه الأقاصيص لا تتجاوز في الأصل التفسير الذي يستفاد من المعنى اللغوي، شأنه شأن كلمة «معلقات» التي تعني القصائد السبع^(٤١) المشهورة التي فسّرت على أنها علّقت على الكعبة، وذلك استفادة من المعنى اللغوي للكلمة. إن عدم وجود أداة التعريف يحمل على النظر في كلمة «محرق» أنها اسم علم، وقد يكون من المحتمل اسم إله أو اسم بطل أسطوري.

لقد حصلت مملكة غسان في القرن السادس على أهميتها الكبرى، متزامنة في ذلك مع السطوة الكبيرة التي كانت في هذه الفترة لمملكة الحيرة. ومن هنا كان التصادم بين القوتين أمراً لا يمكن تجنبه، وذلك أن الطرفين يتبعان قوتين متعاديتين وهما الفرس والبيزنطيون، فكان عليهم اضطراراً أن يتباغضوا بالرغم من فترات سلام عابرة بينهما كما يبدو ظاهراً. لقد خاض «جبلّة» الثالث أو «الحارث الأكبر» حروباً على «المنذر الثالث»، وهُزم فيها، وكانت زوجته «مارية» ذات القرطين الشهيرين المعلّقين في أذنيها المؤلفين من جوهرتين كبيرتين بحجم بيضة الحمام.

(٤١) لقد اتضح الرأي في مسألة «المعلقات» فكثرت الدراسات فيها وانتهت الى ما يقرب استبعاد الكلمة، وأنها لا تعني القصائد السبع الطوال المشهورة.

غير أن الحارث الخامس من ملوك غسان هو أعظم ملوك الغساسنة والعدو للدود لمملكة الحيرة، وهو ابن الحارث الأكبر وأمه مارية. وقد منحه جستنيان رتبة بطريق، وهذا ما جعله في أعلى مرتبة بحيث أطلق معاصروه عليه لقب الملك. وهذا ما يمنح للأمراء التابعين للبيزنطيين، وجعل جستنيان بين يديه قيادة عامة العرب المحاذين للحدود الرومانية، وبذلك يتم التوازن بين طرفين هما الغساسنة وملوك الحيرة أتباع الفرس.

إن الحارث الخامس والمنذر الثالث هما اللذان كانا يسيطران على التاريخ العربي طوال القرن السادس، وقد كان المنذر يتغلب دائماً على خصمه الغساني ولا سيما في سنة ٥٤٤ م في المعركة التي أسر فيها ابن الحارث الغساني، وقدمه قرباناً إلى الالهة «العُزَّى»، ولكنه اضطر إلى السقوط بعد عشر سنوات.

إن الأخبار العربية تشير إلى ثلاث معارك في هذه الحرب: معركة «عين أباغ»، ومعركة «حيار»، ومعركة «حليمة»، غير أن المعركة الأولى لم تبدأ إلا في زمن متأخر، وقد توفي المنذر في حزيران من سنة ٥٥٤ م، وليس في «عين أباغ» بل في «حيار» بالقرب من قنشرين على مسافة يومين من مدينة حلب.

أما معركة «حليمة» فيبدو أنها كانت نفس معركة «حيار». و«حليمة» اسم بنت للحارث الخامس، وهي التي أمرها أبوها

ان تمسح بالخلق مئة محارب تختارهم اختياراً^(٤٢).

غير أن «حليمة» أيضاً اسم لموضع هو وادي حليمة الذي أشار إليه الشعراء حين ذكروا «مرج حليمة» في شعرهم الذي هو المصدر التاريخي في هذه الحروب فقد قالوا: «الشعر ديوان العرب». ومن هؤلاء الشعراء ابن أبي الرّلة الذي أشاد بملوك غسان وبالأبطال الذين سقطوا في المعركة. لقد قالوا: أن من سقط في المعركة وخَلد فيها إلى السكون لم يمّت وذلك لأنّ الميت الحقيقي هو الذي يبقى يعاني حياةً بائسة:

ليس من مات فاستراح بميتٍ
إنما الميّتُ ميّتُ الأحياءِ

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٦٦٣ م وبعد موت خصمه توجه الحارث إلى القسطنطينية فكان ظهوره فيها مما فرضه على الإغريق فيها، وقد قيل: أن الرومان نُبّهوا قسطنطين الثاني ونصحوه أن يلتزم بالهدوء، وهدّوه بوجود الحارث.

وفي قرابة القرن السادس بدأ انحطاط كل من مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة. وقد خلف عمرو بن المنذر الثالث أباه المنذر وذلك في سنة ٥٦٢ م، وكان قوياً غير أنه فظّ الأخلاق، ولم يسلم من نقد الشعراء وهجائهم الحاد، وكانوا ينهزونه بلفظ

(٤٢) انظر تفصيل هذا كله في «المفصل» لجواد علي ٣/٣٩٨-٤٠٣.

«المحرَّق». وكان الشاعر طرفة بن العبد أحد الذين قتلهم.

وبحسب ما وصل إلينا من الأخبار والروايات أن الملك أرسله مع خاله «التملُّس» إلى عُمان، وزوَّدهم برسالة دُعيت «الصحيفة» إلى حاكم ذلك الاقليم يأمره فيها أن يقتلها حين وصولها إليه. غير أن «التملُّس» قرأ الرسالة «الصحيفة» وحده فهرب ونجا، ولقي طرفة حتفه. وقد كان شاهداً على قوة عمرو بن المنذر وسطوته وعلاقته مع الامبراطور البيزنطي، إن الامبراطور من غير شك كان يدفع بصورة منتظمة مبلغاً من المال إلى ملوك الحيرة ليكسب بذلك ولاءهم وحيادهم إن لم تكن محالفتهم، وذلك في نزاعه وحروبه مع الساسانيين.

لقد أراد قسطنطين أن يُنهي هذا الذي جرى عليه البيزنطيون من العمل الشائن، غير أن عمرو ما لبث أن أعلن الحرب على الغساسنة أتباع البيزنطيين. ولكن كبرياء عمرو هذا كانت نحساً عليه، فقد شتم بني تغلب في شخص رئيسهم، وكان بسبب ذلك أن هجم عليه عمرو بن كلثوم الشاعر فقتل ملك الحيرة «عمراً»، وإلى هذا يشير الشاعر الأخطل وهو يفتخر بقومه إلى أن أخواله :

قتلوا الملوك وكسروا الأغلالاً^(٤٣)

(٤٣) عجز بيت للشاعر وصلده: «أبني كليب إنَّ عُمي اللذان».

وقد خلف قابوس أباه عمراً، وهو بالرغم من شجاعته لم ينجح في حروبه مع الغساسنة.

وفي قرابة سنة ٥٨٠ م ارتقى العرش أبو قابوس النعمان الثالث. وقد أشار إلى ذلك الشعراء، وهو معروف أكثر من غيره من ملوك المناذرة الآخرين، على أنه لم يكن ألمهم وأبرزهم. وقد حصل على العرش على حساب أخيه الأسود بمساعدة عدي بن زيد^(٤٤) الرجل ذو السطوة في بلاط كسرى أبرويز، غير أن النعمان بعد فترة وجيزة كان يشعر بريية نحو هذا الذي أحسن إليه فقتله، وكان النعمان قد فقد ثقة كسرى الذي صار ينظر إليه عدوًّا وليس تابعاً موالياً، فقبض عليه وأودعه السجن مدة حتى هلك بالطاعون، وقيل: إنه مات مسموماً، وقالوا أيضاً: أنه مات بأرجل الفيلة التي داسته، وتلك عقوبة استعملها كسرى مع أعدائه.

وقد ذكر الشاعر سلامة بن جندل^(٤٥) أن النعمان عاش طويلاً في قصر أنيق، وأنه ختم حياته تحت سقف صنع من

(٤٤) هو عدي بن زيد العبادي الشاعر، من دهاة الجاهليين، من أهل الحيرة، كان يحسن العربية والفارسية، واتخذ كسرى من خاصته وجعله ترجماناً بينه وبين العرب. سكن المدائن... انظر الاغاني (ط الدار) ٩٧/٢، سمط اللالي ٢٢١.

(٤٥) اسطر سلامة بن جندل الشاعر الفارسي لفخر الدين قباوة، حلب ١٩٦٩.

صدور القبيلة. لقد كان النعمان آخر الأسرة اللخمية، وذلك لأن خلفه إياس كان طائياً وليس من لحم. وكان ذلك آخر حكم هذه المملكة وذلك لأن إياس قد حكم وإلى جانبه موظف فارسي كبير يصرف شؤون حكومته. وعلى هذا فقد كان العصر الزاهر للمنذر الثالث هو أزهر عصور المملكة، ولم تعد الحيرة إلا إقليماً ساسانياً.

وبعد وفاة النعمان بقليل وقرابة سنة ٦٠٤ م وقعت معركة ذي قار المشهورة حيث هزم العرب - ونخص بذلك - قبيلة بكر بن وائل جيوش الفرس. وقد فتحت هذه المعركة سلسلة الانتصارات العربية على الساسانيين.

إن سقوط الغساسنة لم يكن أقل سرعة منه في مملكة الحيرة، لقد خلف الحارث السادس سلفه العظيم الحارث الخامس. وأن الحارث الخامس هذا كان قد حصل قرابة سنة ٥٨٣ م على بعض الفوائد متغلباً على المنذر الرابع في «عين أباغ» غير أن هذه المملكة قد سقطت.

إن خلفه عمرو الرابع كان معروفاً بفضل ما أشاد به الشعراء الذين وجدوا مكاناً في بلاطه، وأشادوا بمن خلفه، وقد كان هؤلاء من الكثرة بحيث يتساءل المدارس فيما إذا كان هؤلاء رؤساء معاصرين له وليسوا أمراء حكموا البلاد.

وقد حمل هؤلاء الملوك لقباً هو «خير الفتيان». وقد آل

أمرهم إلى أن يتغلب عليهم جماعة من السفلة الذين يفوقونهم قوة وسطوة، ثم اضمحلت المملكة الغسانية بسيطرة المسلمين.

مملكة كندة

بقي علينا أن نتكلم بإيجاز على مملكة ثالثة كنا قد أشرنا إليها في أول هذه المحاضرة إلى جانب مملكتي الحيرة والغساسنة، تلكم هي «مملكة كندة» التي برزت في نهاية القرن الخامس في وسط شبه الجزيرة العربية، والتي كان من جملة أمرائها الشاعر العظيم امرؤ القيس.

وقد اعتُبر حُجر آكل المَرار^(٤٦) مؤسس هذه المملكة وقد كان قريباً جداً من الحميريين في الجنوب ولكنه لم يتأثر بهم. إن وضع كندة هذه بإزاء الحميريين يشبه وضع اللخمين بإزاء الساسانيين من بعض الوجوه كما يشبه وضع الغساسنة بإزاء البزنطيين.

غير أن العدو المُخوف لكندة هو ملك الحيرة. وكان أشجع ملوك كندة الحارث بن عمرو الذي آل به الأمر إلى أن يكون

(٤٦) حجر آكل المَرار سيدة كندة وهو أول ملوكها. انظر ابن خلدون ٢/٢٧٢. وفي الخزانة ٣/٥٠٢ - ٥٠٣ أن في «آكل المَرار» خلافاً فهو حجر بن عمرو بن معاوية أم الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية؟.

سَيِّدَ الحِيرةِ في جزءٍ منها على الأقل، ولم يسكن في الحِيرة بل في مكان آخر لعله الأنبار، غير أن المنذر قد ظهر بعد قليل واستطاع أن يسيطر على الحارث ويهزمه، ولم يقنع بهذا النصر بل تجاوزَه فأمر أن يذْبَحَ أمراء كندة الذين أودعهم السجن. وهذا العمل الوحشي أوحى إلى امرئ القيس فقال في ذلك شعراً جميلاً لم ينس فيه أن يشيد بأجاده ويذكر نكبة آبائه:

ألا يا عين بكِّي لي شنيئنا
وبكِّي لي الملوكَ الذاهبيننا
ملوكاً من بني حُجر بن عمرو
يُساقون العشيّة يقتلوننا
فلو في يوم معركة أصيوا
ولكن في ديار بني مَرينا
فلم تُغسلَ جماجمهم بغُسلٍ
ولكن بالدماءِ مُرْمَلينا
تظلّ الطيرُ ملحفَةً عليهم
وتنتزع الحواجب والعيونا^(٤٧)

وبعد قليل تفككت مملكة كندة، وقد أدّى تفككها إلى أن يفصل ابنا الحارث أحدهما عن الآخر، وهما: سلام وشرحيل، وكان شرحيل قد قتل في موضع يقال له

(٤٧) الايات في الديوان ص ٢٠٠.

«كُلاب»^(٤٨). غير أن وراء ذلك استتر العداء والشحناء بين قبائل مختلفة، وقد أدى ذلك إلى الحروب المشهورة في الجاهلية. وقد أراد امرؤ القيس أن يثار لأجداده، وأن يسترد مملكة كندة، فتوجه إلى «القسطنطينية» ملتمساً المعونة والنجدة من جستنيان مستغلاً كونه مناوئاً للحيرة، الأمر الذي يأمل به أن يحظى برعاية الامبراطور البيزنطي. ولكن ذلك لم يجده شيئاً فقد انتهت مملكة كندة^(٤٨) إلى الأبد.

ومع ذلك لم تكن هذه المملكة القصيرة العمر قليلة الأهمية بالنسبة لمستقبل العرب. إن اجتماع هذه القبائل الكثيرة بقيادة «آكل المرار»، إذا كان لي أن أوضح الأمر، هو المحاولة الأولى للعرب في قلب شبه الجزيرة العربية في توحيد صفوفهم وراء زعيم واحد مشترك. ولعل ذلك كانت تمهيداً أو مقدمة لاجتماع القبائل المختلفة بعد قرن من الزمان وراء زعامة النبي محمد - ﷺ -، ولم تعدم إلا الجانب الديني الذي كان من شأنه أن منح الاسلام القوة العظمى. أن زوال الكنديين بعد سقوط مملكتهم أوجد في أثناء «الردّه» بعد موت النبي محمد - ﷺ -

(٤٨) انظر حواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/٣١٥.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة التابعة لجامعة الملك سعود برئاسة الدكتور عبد الرحمن الانصاري عن قرية «الغاو» عن مظاهر حضارية مختلفة الى الشمال الشرقي من نجران بما يقرب من ٢٨٠ كيلومتر، وهذه عاصمة دولة كندة لحقبة تربي على خمسة قرون، كما عثروا على كتابات بالخط المسند.

عدة قبائل . غير أن هذا الحدث وهو الردة التي أخضعت حين لم يمكن إيقاف انحلال كندة، يرينا التقدم الذي أصابه العرب في خلال هذا القرن بشأن إقامة الدولة .

إذن هناك ثلاث ممالك^(٤٩) كانت تقسم شبه الجزيرة العربية فكان الحميريون في الشمال ان القبائل التي أخذت نصيبها في هذا الكيان كانت من أصل جنوبي، وفي إمكاننا أن نؤمن أنهم كانوا حملة أصول حضارة لم يكن البدو في الشمال إلا غرباء عنها . والعرب من سكان الحيرة والغساسنة كانوا قد اشتبكوا في الخصومة التي كانت بين البزنطيين والفرس . وكان العرب قد نظروا من قرب وتعلموا من هذه المصادمات الحربية الفن الحربي على يد أولئك السادة الذين أتقنوا هذه الصناعة في تلك العصور . وبإمكاننا أن ندرك بيسر أن جميع ذلك كان من اختصاص العرب، ولم يكن ذلك إلا تمهيداً للصراع الذي خاضه العرب عند ظهور الاسلام، ومن أجل ذلك نكون مخطئين إذا نظرنا إلى خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأقرانهم على أنهم قوم بدو لا علم لهم انقلبوا جنوداً وقادة في فترة قصيرة .

وكان تقدم العرب في حضارتهم المادية واضحاً كما كان تقدمهم في الناحية الأدبية كما سنبين في المحاضرات اللاحقة .

(٤٩) لا بد أن نضيف مملكة النبط في المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة في الموضع المعروف باسم العربية الحجرية .

المحاضرة الثانية

في

التقدم العقلي لدى العرب

التقدم العقلي لدى العرب

لقد أفاد العرب من الحضارتين الإغريقية والرومانية كما أفادوا من الحضارة الفارسية. وهم مدينون إلى هذه المصادر الحضارية على نطاق واسع في التقدم الذي أصابوه وقادهم إلى الحدث العظيم الذي جاء به الاسلام. وأسسوا الدول قبل ذلك بكثير. في خلال القرنين أو ثلاثة القرون التي سبقت الإسلام كانوا قد أسسوا دولاً، وكان لهم أن مَرَنُوا على فن الحرب، وأحرزوا تقدماً في حياتهم المادية كما تهيأ لهم أن ينشئوا أدباً يتمثل في القصائد التي عرفت قبل الاسلام، وهي تلك المواد الأدبية الممتعة العظيمة التي تثبت أصالتهم الأدبية من غير منافس.

وقبل الكلام على هذا الشعر ينبغي لنا أن نقول بضع كلمات في السبب الذي في رأينا قد كان له الأثر القوي في أفكار العرب، إنه النصرانية في الحيرة وفي دولة الغساسنة. لقد كانت النصرانية سائدة جداً في هاتين المملكتين، وكان القسم

الأعظم والقسم المهم من سكان الحيرة، ومن يطلق عليهم «العباد» من النصارى. وقد يحصى المرء كنائس وأديرة كثيرة في هذه البلاد، وكان هؤلاء النصارى يقيمون رسوم عبادتهم باحترام واحتفال، وهو ما كان يتميز به هؤلاء النصارى في الشرق.

وقد بقي ملوك الحيرة وثنين زمناً طويلاً. وقد كان الشرق في تلك الأحقاب مقسماً بين قوتين كبيرتين هما: الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية، وإن يكون نصرانياً في تلك الحقبة كان يعدّ منحازاً أو موالياً للبيزنطيين، وكان هذا حتى في منطقة بعيدة كبلاد الحبشة، فالملك فيها كان معدوداً مشايعاً للبيزنطيين لمجرد كونه نصرانياً، ومعنى ذلك أنه خصم للفرس. وقد أفلت النعمان أبو قابوس حين اعتنق النصرانية من غضب الفرس، وذلك لاعتناقه المذهب النسطوري وهو المذهب المحظور في بيزنطة، وقد اضطهد البيزنطيون أتباع هذا المذهب، فكانوا من أجل ذلك على صلة حسنة بالفرس الساسانيين.

وقد ادعى مؤلفون من النصارى إن ملوكاً سبقوا النعمان كانوا معتنقين للنصرانية وكان من هؤلاء المنذر الثالث؛ غير أن هذا الملك كان قد قدّم قرباناً إلى الإلهة «العزى» ابن الملك الغساني مع أربع مئة من الراهبات، ومن هذا نتبين بوضوح أنه وثنى جدّ عنيد وجدّ متوحّش منجبر، كما تؤيد ذلك الأخبار

التاريخية العربية، وإلى هذا الملك ينسب تأسيس «الغريين»، وهما نصبان كبيران إلى جوار الكوفة، وهما أيضاً مكرّسان إلى «العُزَي» ويسكب عليها دماء الأضاحي، وقد تكون هذه الأضاحي ضحايا من البشر.

ومن المعروف أن أسطورة أَلصقت بهذه الأحجار، هي تلك التي تشير إلى النهاية المؤلة «لِضَلَّ وعمرو بن مسعود»، وهي تتمثل في «يوم النعيم» و«يوم البؤس»، وقد كان من ضحايا «يوم البؤس» الشاعر عبيد بن الأبرص^(١) والقصة المؤثرة لحنظلة وشريك، وهما الشيطان وصاحبه^(٢) في الاسطورة العربية.

لقد بقي الملوك وثنيين بسبب ما عرضنا له إلى أن جاء النعمان، غير أن النصرانية لم تكن قليلة الانتشار في هذه البلاد، فقد وجدت سبيلها حتى في الأسرة الملكية كما كان الحال في روما قديماً.

إنها (أي النصرانية) وجدت السبيل إلى أسرة الفلايين (des Flavii) وهي موطن الوثنية الامبراطوري.

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي، من دهاة الجاهلية وحكمائها عاصر امراً الفيس. انظر أخباره في الاغانى ٨٤/١٩، وخزانة الادب ٣٢٣/١.

(٢) انظر في هذه الاسطورة ما جاء في أحبار الشعراء في الأغاني، وما كتبه الدكتور طه حسين في «الشعر الجاهلي».

لقد كانت الملكة «هند» زوجة المنذر الثالث نصرانية، وكانت قد ابنت الديراً والكنيسة اللذين بقي منهما النقش الذي يشير إلى التأسيس والبناء، وإن لم يكن هذا «النقش» تآم النص، فقد كان في جوهره بهذا المعنى، وكان مفهوماً على النحو الآتي تقريباً:

«لقد شيدت هذه الكنيسة هند بنت الحارث بن عمرو بن المنذر، الملكة بنت الملوك وأم الملك عمرو بن المنذر، خادمة المسيح، وأم خادمه، وبنت خدّمه، وذلك في عهد شاهنشاه كسرى أنوشروان، وقد كان أفرام أسقف المدينة...».

إن هذا النص الجميل الحقيقي من غير شك يشهد بازدهار النصرانية مع بقاء الملوك على الوثنية. لقد كانت الحيرة مركز الاسقفية، وقد كان ذلك في الأقل ابتداءً من سنة ٤١٠ م.

وكانت مملكة غسان نصرانية أيضاً، فقد اعتنق ملوكها النصرانية قبل ملوك الحيرة بزمان طويل، وكانت نصرانيتهم أرثوذكسية، وهي بالنسبة إليهم عقيدة دينية تتفق مع المصالح السياسية. وكانت الاحتفالات الدينية تقام بأبهة كبيرة، فالقُسس في مسوحهم الدينية الفاخرة، وكتبهم في طقوسهم ذات خطوط أنيقة. - وإن احتفالهم بالأعياد لا يمكن إلا أن يحفز عرب شبه الجزيرة فيحملهم على أن يُهرعوا إلى هذه المواطن النصرانية. وكان ذلك كان يصوّر لاولئك العرب إن عبادة

هؤلاء النصارى أسمى وأبهى من عبادتهم في التضحية بأرواح
البشر قرايين للعرزى يقدمون على مذبحتها الملتطخ بالدماء!

وقد أشار النابغة الذبياني الى احتفال الغساسنة بالأحد «يوم
السياسب»^(٣) فقال:

مَحَلَّتْهُمْ ذَاتَ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ
قَوِيْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ
رِقَاقُ النُّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ
يُحَلِّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السِّيَاسِبِ^(٤)

وكذلك الإشارة الى الكتب الكبيرة الكنائسية، والتماثيل
والصور التي سلبت عقول العرب. وقد أشاروا في هذا الى
«الدمية» وهي الكلمة ذات الأصل الآرامي وتعني فيها الصورة
أو الشبه. لقد أشار امرؤ القيس واستعمل أشياء من هذا
النوع، كما استعمل النابغة من هذا في وصفه المشهور
«للمتجردة»، وأنه نعتها بتمثال من مرمر في قوله:

أَوْ دَمِيَّةٍ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ
بُنِيَتْ بِأَجْرٍ تُشَادُ وَقَرْمَدٍ^(٥)

(٣) يوم السياسب عيد للنبارى ويسمى السمانين. انظر السمانين في كتاب
«الديارات» للشابشتي.

(٤) الديوان ص ٤٩.

(٥) الديوان ص ٩٦.

والشاعر عبيد بن الأبرص:

وأوانسٍ مثل الدُّمَيِّ

حُورِ العيونِ قد استَبَيَّنَا^(٦)

ولنرجع إلى الأدب ما قبل الاسلام ونقول: إنه قبل كل شيء أدب شعري، بل يكاد يكون مقصوراً عليه، وأن تقدّمه كان بفضل الحياة المضطربة للقبائل العربية. لقد كان الشعر بادئ ذي بدء في ضرين: الأول لا يكاد يستحق اسم الشعر وهو الهجاء القديم، لكن الثاني كان في نظام القصيد.

إن الضرب الأول ذو طابع شعبي، في حين كان الثاني نوعاً أدبياً مكتمل البناء. وكما بين صديقي الاستاذ كولدزهر، ان كلمة «الشاعر» لدى العرب تعني في الأصل «العارف»، أو المالك لمعرفة لم تتيسر لأبناء القبيلة الآخرين. إن هذه «المعرفة» ترجع إلى أنها من وحي شيطان خاص للشاعر وهو الذي يوحى إليه ويغويه.

إن الشاعر قائد للقبيلة، وهو الذي يتحدث باسمها مدافعاً عنها. وأنه بعد هذا يملك قوة خارقة غامضة، تلك التي يعجل بها على أعداء قبيلته بالدمار فيقذف باللعنة عليهم. وإذا كان الشاعر ينطق بوحى من شيطانه فهو شيطان أيضاً، وهو ساحر

(٦) الديوان ص ١٣٨.

رهيب، ومن أجل هذا لم يكن اتفاقاً أن تعني مادة «نشد» التعويذة والتلاوة أيضاً. وإعراب الشاعر وإتيانه باللعنات على أعداء قبيلته كان غرضاً ضرورياً له.

وقد يكون النصر في الحرب لقبيلة ما بسبب ما يرمي به الشاعر أعداءه بلعناته في شعره مساوياً لما يبدیه أفراد القبيلة من شجاعة في الحرب وإن هذه «اللعنات» لا تعدم تأثيرها، ذلك أنها لا تنجم عن الشاعر نفسه بل عن شيطانه الذي يوحى إليه، والذي لا يستطيع أحد أن يصدّه. إن الأخبار الماثورة التي تزيد هذا الاعتقاد عندهم كثيرة.

يقدم تاريخ العبرانيين لنا نظائر هذا الاعتقاد، وذلك كما في قصة «بَلْعَم» وهو الشاعر الشيطان. إن ملك هذا الشاعر المدعو «بَلَك» يدعوه ليرمي بلعناته على الاسرائيليين، التي تستحيل بإرادة الله بركات. إن «بَلْعَم» شاعر عربي، وقد كان كولدزير على حق حين زعم أن قصة «بلعم» هي أقدم وثيقة في «الهجاء». ولهذا «الهجاء» رسومه الثابتة التي تقضي أن تخلع فردة حذاء الشاعر وتُسْقَط عنه جوانب من قميصه بحيث يُغَطَّى وجهه، وذلك علامة للغضب والعداوة. ومثل هذا ما يوجد في عصرنا، وهو أن ملك أثيوبيا وعظماها يغطون وجوههم بقمصانهم علامة لغضبهم. وفي قذف اللعنات الذي يتم برفع الاصبع إشارة إلى الشخص الذي تصيبه اللعنة، إن

هذه الاصبع تدعى في العربية «السَّابَة»، وفي ذلك إشارة إلى اللعنة القديمة .

والإشارات التاريخية تحذّر من المشي في نعل واحدة، ومن ذلك قولهم: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة»، وكذلك أن يسدل القميص على الوجه، أو أن يسلم المرء بإصبع واحدة، كل ذلك مما أنكرته العادات الوثنية، ثم جاء الاسلام بعد ذلك وسعى إلى إبطائها .

لقد فهم الهجاء في أصل نشأته نثراً مقفياً أي سجعاً، ومنه نشأ فن الرجز، وهو أسهل بحور الشعر وأقدمها، وهو الذي تميّز به الأدب الشعبي . وأقدم مثال لتلك اللعنات قولهم :

اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً .

ان «الهجاء» يعني «اللعنة»، ولم يحى معنى الانتقاص للهجاء إلا بعد ذلك بحسب التطور التاريخي . إن الكلمة (أي الهجاء) تعني في اللغات السامية الأخرى «الحمجمة» أي الكلام بصوت خفيض غير مفهوم كما ينطق بالعبارات السحرية الغامضة .

إلى جانب هذا اللون الشعبي الذي لا يتألف إلا من أبيات قليلة، تطورت القصيدة العربية التي تمثل اللون الأدبي الكبير للشعر العربي . وأنا لا نعرف هذا اللون من الأدب، في كل

الاحتمالات، إلا في زمن قريب من تطوره واكتماله. ان القصائد البديعة في القرن السادس يفترض فيها أن تكون قد خضعت الى تنقيح أو تعديل لم يبق له من أثر، وهذا التنقيح في رأيي قد شمل اللغة. ويعتقد المرء أن لغة الشعر في عهود ما قبل الاسلام هي لغة موحدة في جميع الامكنة التي سكنها الجاهليون.

إن امرء القيس ينتسب إلى قبيلة «كندة»، وهي في الأصل من العربية الجنوبية من قبائل «قَبْيان»، وأن النابغة من قبيلة ذبيان، وهذه القبيلة من غَطَفان، أي أنها من مُضَر، وأن عمرو بن كلثوم من تغلب المتحدرين من ربيعة، غير أن شعر هؤلاء جميعهم يفهم منه لغة واحدة.

أليس في الإمكان أن نفترض أن قبائل مختلفة لم تكن لهجاتها الخاصة مختلفة فيما بينها؟

إن اللغويين القدامى قد أشاروا الى صيغ خاصة ببعض القبائل كالكَشْكَشَة والكسكسة والتلثلة ونماذج أخرى خاصة أيضاً، ولم يكن شيء من ذلك قد ورد في الشعر القديم. ومن الدليل على عكس هذه المقولة ما أثر من أشعار ليست قليلة نسبت إلى رعاة أو جماعة من عامة الناس الذين لا يمكن أن نفترض أن لغتهم لغة أدبية، بل أنها انعكاس لما درج عليه الناس في كلامهم.

غير أننا نرى أن لغة الشعر الشعبي في كل مكان تبتعد بشكل ما عن اللغة المتداولة في درج الكلام. وأكثر من ذلك ينبغي ألا ننسى أن اشعار أولئك الرعاة قد وصلت إلينا بوساطة أولئك اللغويين والنحاة الأقدمين الذين، كما نعرف، قد نقّحوا وصحّحوا من نصوصها، وعلى هذا فإن منهج النقد للنصوص الذي نتبعه غريب عما كان لديهم غرابة تامة. على أن طرائقهم في العمل النقدي شبيهة بما نجده لدى الإغريق الأقدمين.

إن القصائد الهوميرية لا يمكن أن تمثل آياً من اللهجات الدارجة في تلك العصور بين الإغريق. إنها لغة شعرية تفهم على هذا النحو في كل مكان، وأنها بسبب ذلك شيء مصطنع. إنها لغة لا نجدها كثيراً، قد صنعها الشعراء أنفسهم. ونعتقد أن طريقة مماثلة قد تحققت لدى العرب، وهذا يوضح لنا الطابع الثابت المقنن في اللغة الشعرية.

غير أنه لا بد من سؤال هو: أين تكونت هذه اللغة الشعرية؟

كل شيء يحملنا على أن نفتش عن أصل تلك اللغة بين القبائل التي تألفت منها مملكة كندة في أواسط بلاد العرب.

لقد وجد الشعراء في النزاعات الكبيرة التي كانت تنشب بين القبائل موضوعات جديرة بالحنهم. كان الشعراء الأقدمون على صلة وثيقة بهذه الأحداث، فقد ذكر المصنفون العرب أن

المهلل التغلبي^(٧) أول من قصّد القصائد الطوال، وهو أخو كليب أحد أبطال «حرب البسوس». وقد كان امرؤ القيس من كندة يشير إلى أنه قد حُرِمَ عرش آبائه. إن المباريات الشعرية، كما ورد في الأخبار، كانت تعقد في «عكاظ»، على مسافة ثلاثة أيام من مكة، بين الطائف ونخلة، ولم يكن لها أن تساهم في تطور القصيدة العربية، وذلك لأننا لا نعرف عن هذه القصيدة إلا ما كان منها في عصرٍ متقدم نسبياً من تاريخها الطويل، وفي هذه الحقبة كانت قد نضجت واكتملت بما يُفترض أن تكون قد جرى عليها تنقيح على مدى زمن طويل.

ومن السمات البارزة في هذه القصيدة ما يتصدرها من أشعار الحب التي تدعى «النسيب». والشاعر فيها يشكو من رحيل حبيبته، وذلك لأن التنقل المستمر للقبائل العربية كان من شأنه أن ينهي علاقات الحب بين الشاعر وحبيبته. ومن أجل هذا هو حزين أبداً، يبكي الدمار والمواضع التي كانت فيها حبيبته فأضحت خلاء لا ترد على سؤاله. وهذه الأشعار في الغالب تتصف بجمال فريد لما فيها من عواطف رقيقة، قال النابغة:

(٧) هو عدي بن ربيعة من بني جشم، شاعر جاهلي، من الأبطال المشهورين. انظر الشعر والشعراء ص ٩٩ وجمهرة أشعار العرب ص ١١٥، الخزائن ٣٠٠/١ - ٣٠٤.

بانت سعاد وأمسيَ حبّ لها انجذما^(٨)

وما هام الفؤاد بها
إلا السفاة وإلا ذكره حُلماً^(٩)

وقوله :

يا دارمِيَّةَ بالعلِيَاءِ فالسُنْدِ
أَقَوْتُ وطال عليها سالفُ الأَبْدِ
وَقَفْتُ فيها أَصِيلاً أسائِلُها
عَيْتُ جواباً وما بالرُّبْعِ من أَحَدٍ^(١٠)

وإن القاعدة في استهلال القصائد بشيء من النسب جرى
عليها الشعراء المتأخرون، طوال القرون الثلاثة الهجرية في
الأقل، ولكن ما لبثت أن صارت شيئاً غريباً.

ومن هذا ما جاء في قول المتنبي (من شعراء القرن الرابع
الهجري) :

إذا كان مدحُ فالنسيبُ مقدّمٌ
أكلُ فصيحٍ قال شعراً متيماً؟^(١١)

(٨) صدر مطلع قصيدة، وعجزها: «واحتلتُ الشُّرْعَ فالأجزاء من إضمار» ص ٢١٥.

(٩) كذا ورد صدر البيت ونعامة: «إحدى بلي» وما هام الفؤاد بها» ص ٢١٥.

(١٠) الديوان ص ٧٦.

(١١) مطلع قصيدة في الديوان في طبعاته المختلفة.

ولكن كيف تمّ بناء القصيدة العربية؟

لقد كان الحب الموضوع السائد والمعتاد في الشعر لدى العرب كما هي الحال عند سائر الشعوب. وكما هي الحال في عصرنا فالمغني المصري يتخذ من الحب موضوعاً لغنائه. لقد صار الحب المادة الرئيسة في قصيدة الشاعر الملتزم الذي لا يجد عيذاً عنها.

إننا لو وجدون حقيقة كهذه لدى الإغريق، فإن جماعة ما يُسمّون بـ «rhapsodes» كانوا ينشدون القصائد الهوميرية ويقدمون لها بأناشيد من هذا القبيل. وقد بقي شيء من ذلك في نشيد «Hymni homerici». وإذا كان الحب مادة في الشعر لدى العرب فإنه لدى الإغريق النشيد المقدس.

وكلا هذا وذاك مقدمة تبدو لنا غريبة وهي تسبق التلاوة للقصيدة كلها. على أن القصيدة لا تخلو من المقدمة الغزلية كما هي الحال في شعر المراثي في بكاء رجل عظيم من رجال القبيلة وذلك لأن الموضوع الحزين لا يتفق وطبيعة الشعر في النسب.

ومهما يكن من شيء فقد أصاب الشعر في القرن السادس الميلادي حظُّه الأوفى من النضج وهذا يؤلف درجة ما أدركه العرب في التقدم العقلي. على أن قدراً مهماً آخر من النضج قد

أصابه العرب في الفكر الديني بتأثير اليهود والنصارى الذين كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية.

ولقد رأيناكم تأثر العرب في الحيرة وكذلك الغساسنة في بلاد الشام بالفكر المسيحي، وأنهم أخذوا به واعتنقوه.

ولا بد أن ألمح الى ما اعتقده البعض من أن هؤلاء المعتنقين للمسيحية كانوا تمهيداً لظهور النبي محمد - ﷺ -، بل أقول: إنهم رواد الفكر الديني لدى العرب عامة. على أن جمهرة البدو من أعراب شبه الجزيرة لم يتميزوا مطلقاً بفكرة دينية راسخة. وقد ذلك في قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً﴾.

إن الآلهة والأصنام كانت معروفة سائدة، ولم يكن للدين لدى البدو حافز من عاطفة عميقة الأصول كما هي الحال لدى الإغريق والرومان، كما لم يكن لهم رسوم عملية في سلوكهم الديني، ولم يتأت لهم ذلك إلا في عصور متأخرة وذلك بتأثير اليهود والنصارى.

غير أن جمهرة هذه الآلهة الكثيرة سرعان ما أفضت الى مجموعة صغيرة مهمة، وهي عبادة «مناة» و«اللات» و«العزى»، وقد نُسيت آلهة أخرى. ولكن «الله» أكبر منهن جميعاً، قال أوس بن حجر:

وباللّات والعزّى وباللّه ان الله منهن أكبر^(١٢)

ونرى كم اقتربت الأفكار التي تؤمن بالتوحيد، وأنها كانت
منتشرة قبل الاسلام، وكم كانت الأفكار مهيأة لعبادة الواحد
الأحد.

(١٢) البيت في ديوانه والمجموع، ص ٣٦.

المحاضرة الثالثة
في
التقدم المادي

التقدم المادي

كان التقدم المادي للعرب بارزاً متميزاً كما هي الحال في تقدمهم العقلي. لقد وجدت الحضارة البيزنطية بما كان فيها من مظاهر التآثق سبيلها الى شبه الجزيرة العربية، كما كان هذا بالنسبة الى حضارة الفرس. ولنا على ذلك دليل غير مباشر^(١)

(١) ربما كان الأمر على عكس ذلك في واقع الحال، فالنصوص السبئية القديمة أطلقت على اليمن «يمنات» بمعنى الخير والبركة، أي ما ترجمه الرومان الى «أريبيا فيلكس» أي العربية السعيدة دلالة على غنى تلك البلاد ومدى حضارتها. لقد ذكر المؤرخ بلينيوس الروماني في القرن الاول للميلاد وصفاً لبلاد العرب يدل على حضارتهم، وحديثاً آخر يدل على كثرة صادراتهم الى الرومان، قال: «كسبت بلاد العرب نعت «سعيدة» لأنها فياضة بحاصلات يستعذبها أهل الترف ويصاهاون في اقتنائها جهازاً لموتاهم، ويقصد بذلك «اللُّبان» الى أن يقول: هكذا انصرف المترفون الى إحراق هذه الحاصلات أمام أجساد أعزائهم الراحلين الى دار الفناء بعد أن كان استعمالها قبلاً ينحصر في مراسم العبادة لألهتهم. وتبتر الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من أموال امبراطوريتنا مبلغ مليون «ستريسة» وهي قطعة لعملة رومانية =

ولكنه مصدر ثقة، وهو جمهرة الكلم الذي استعاره العرب من هاتين الحضارتين. ان من البديهي أن العرب أدخلوا المسميات مع اسمائها، أو قل: إنهم بالأحرى أدخلوا المسميات قبل اتخاذ أسمائها.

إن هذا من الجوانب الممتعة في فقه اللغة العربية، وهو صعب في الوقت نفسه، وذلك لأن لهذه اللغة خصوصية عجيبة في تعريب الكلم الدخيل، وعلى سبيل المثال أن العرب في مدينة «مَصْوَغ» قد أخذوا أو صاغوا من الكلمة الإيطالية «Soldi» وهي ضرب من العملة الصغيرة جمعاً على بناء «فَعَالِل» فقالوا: «صَلَادِي» («Saladi»)، وهذه الصيغة عربية قد يصعب على السامع أن يعرف أنها دخيلة. أما إذا كانت الكلمات دخيلة من أصول لغات سامية أخرى فإنه من الصعب أن يقطع المرء في أنها في تلك الحال مستعارة من لغة من تلك اللغات، أو أنها أصيلة في العربية، وهي عندئذٍ من المشترك بين هذه اللغات.

لقد احتقر العرب، ولا سيما البدو في جاهليتهم،

= قديمة، في كل عام، وهذا على أقل حساب، وتلك ثروة طائلة بذورها على أهواء مترفين ونساء.

انظر: د. عدنان ترسيبي، اليمن وحضارة العرب ص ١٥ (بيروت مكتبة الحياة).

الزراعة^(٢)، فقد قال شعراؤهم: ان المجد يُتَحَصَّلُ بالسنان وليس بزراعة الحقول. وبسبب من هذه النظرة كانت الكلمات الدالة على الزراعة من أصل آرامي. وهذا ما اعترف به العرب أنفسهم كما في كلمة «أكار» وتعني الفلاح، وكذلك «أريس» أو «إريس» أي الزَّراع^(٣)، وكذلك كلمة «نير» وهو الخشبة التي تُربط بِسَيْرِ الدابة في آلة الحراثة.

ومن هذا «أندر» بمعنى المكان أو المساحة، وهو من الآرامية «إدار»، وكذلك «الناطور» وهو حارس الكرم، وفي الآرامية «ناطورا»^(٤)، وكذلك «الفدان» وهو من أسماء المقادير في

(٢) لعل اليمن القديمة غير سائر أقاليم شبه الجزيرة العربية، ذلك أن اليمنيين أهل فلاحه منذ أقدم العصور لما كان في ظروف اليمن الجغرافية من عوامل مساعدة كخصب الأرض وكثرة المياه من المطر والعيون والآبار.

(٣) هذا صحيح ذلك أن العاملين في الفلاحه في عامة بلاد العرب في المشرق كانوا إما نبطاً أو آراميين ومن أجل هذا حفلت لغة الفلاحه بالمعرب من أصل آرامي، وكنت قد جمعت في هذا رسالة صغيرة نشرتها في ضمن كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني على أننا لا نعدم أن نجد في ألفاظ الفلاحه شيئاً آخر من الكلم القديم وهو الكلم البابلي الاكدي، وهذا ظاهر في الالفاظ العراقية مما يتصل بالفلاحه. وليس غريباً أن نجد شيئاً من اللغة الفارسية مما عرّبه العرب.

(٤) أقول: «الناطور» كلمة آرامية استعارها العرب ودخلت في لغتهم وأدبهم، قال المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

وقد بشتت وما تفضى العناقيد =

المساحة^(٥).

ومن هذا أسماء طائفة^(٦) من النباتات والفاكهة استعارها العرب من لغات أجنبية، ومن ذلك مثلاً «البُنْدُق» وجمعها «بُنَادِق»، وهو مما لا يُدرك يُسَرُّ وهو من أصل اجنبي (nux pontica) من مملكة «البونت» «Pont»، فهو منسوب الى هذه البلاد، فقد استعاره الآراميون فكان «فُنْتُق» ثم في العربية «بُنْدُق». وسنورد في موضوع آت أمثلة من هذا النوع وسنقتصر على ذكر طائفة مهمة من النبات والشجر.

وما زالت هذه الكلمة في عامية أهل العراق، فالناطور هو الخارس أيضاً كان غير مختص بالكرم.

(٥) الفَدَّان من أسماء المساحة وهو قدر معين من الأرض يختلف بحسب البلدان. ولعل أصله آلة الحرث أي المحراث، وما زال هذا معروفاً لدى العراقيين للمحراث الذي تجره دابَّتان. وكأني ألمع فيه من هنا التثنية فهو مثنى «فَدَّ» و«الفَدَّ» هو الواحد أو الفرد. وكان «الفَرْد» والراء فيه قد جاءت من فك ادغام الدال في «فَدَّ» وليس غريباً أن يتحول هذا الى «الفَدَّ» بالذال المعجمة في المعنى نفسه. ومن هنا كان «الفَدَّان» مثنى «فَدَّ» أي الحيوان الفرد الذي يجر آلة الحرث مع «الفَدَّ» الآخر.

(٦) أود أن أقول: بالرغم من وجود الأثر الآرامي في الأدب الفلاحي السريبي القديم، فمن حقي أن أقول: ان مشاركة العرب في هذا التراث بما تسعف به العربية القديمة من فرائد كبيرة جداً، فقد كتب اللغويون المتفهمون، كالاصمعي في هذا فكان له كتاب في النبات وآخر في النخل والكرم، ولأبي حاتم كتاب النخل الذي قمت بتحقيقه ونشره، وللنضر بن شميل كتاب في النبات والكرم، عرض فيه لأسماء البقل والشجر. (بقية الدعاة ٣١٦/٢).

ومن ذلك شجرة الزيتون التي لا وجود لها في شبه جزيرة العرب، وكذلك في بلاد النبط القريبة من فلسطين وشهادة «سترابون» حاسمة في هذا الباب، إذ قال: إن البلاد خصبة مشمرة لجميع أنواع الفاكهة إلا شجر الزيتون. إننا ندرك من ذلك أن هذه الشجرة النافعة لا تحمل المناخ الشديد الحرارة أو الشديد البرودة.

إن النظر اللغوي يحملنا أيضاً على أن ننظر إلى كلمة «زيتون» على أنها كلمة دخيلة، وذلك لأنه لا يوجد في العربية كلمة أخرى على وزن «زيتون»^(٧)، وبسبب من هذا إنها مستعارة من الآرامية.

ومن الكلم الدخيل المستعار الكلمات التي تعني «المصابيح» التي يجهلها العرب الأقدمون، الذين لم يكن لهم من المحتمل من وسائل الإنارة شيئاً إلا إشعال النار والاستضاءة بقبس.

ومما نعرف أنه إذا لدغ أحدهم من عقرب أو أفعى سأم تقام حوله ضجّة وتوقد نار في الليل حتى يبقى الملدوغ يقظاً كلما أبصر إشراق النار، وهذا ما كانوا يدعونه «نار السّلم»^(٨). وكذلك توقد النار إذا ما أخذ الأسرى عبيداً في الليل مخافة أن

(٧) جاء في كتاب (النبات) للأصمعي ص ٣٧: والعُثم هو الزيتون البري (القاهرة ١٩٧٢).

(٨) انظر فصل «نيران العرب» في كتاب «بلوغ الأرب» للألومي.

يخطئوا في عددهم عند الأخذ. إن اللغة تشهد أن استيراد المصاييح خاص بالآراميين.

إن كلمة «قنديل» من أصل لاتيني «كاندلا» «Candela» استعارها الإغريق ثم تحولت، من هؤلاء إلى الآراميين، ثم استعارها العرب بدورهم من الآراميين. ويقابل هذا، الكلمة الفارسية «چراغ» «Tchirag» قد استعارها الآراميون فكان «شِراغا» «Šrāgā» التي جاءت منها الكلمة العربية «سراج»، فأما «نيراس» فمن الآرامية «نيراشتا» «nebrasta».

غير أن هذا يقتصر على مصاييح الكنائس التي بهرت العرب، وهذا دليل آخر في تأثير الديانة المسيحية في أفكار العرب.

يقول امرؤ القيس: إن وجه حبيبته يضيء الظلام كمصباح الراهب المتبُّل:

تُضيءُ الظلام بالعشاء كأنها

مَنارةٌ تُسمى راهبٌ متبُّلٌ^(٩)

كما شبّه وجه العروس الشابة بمصباح زيتي ذي فتيل:

يضيء الفراش وجهها بضجيعها

كمصباح زيت في قناديل دُبال^(١٠)

(٩) الديوان ص ١٧.

(١٠) الديوان ص ٢٩.

وقد شبه النابغة نصل السيف وهو يلمع بمصباح الراهب:

وأسمَرَ مارِنٍ يلتاح فيه

سنانٌ مثل نبراس النُّهامي^(١١)

وفي الواقع أن هذه المصابيح إذا ما قورنت بالنار الموقدة، أو القَبَس من النار، تعدّ تقدّماً حضارياً كبيراً. ومن هنا كان النابغة الجعدي^(١٢) على حق حين وجد هذه المصابيح المدهشة التي ليس فيها دخان كما في قوله:

لم يجعل الله فيه نُحاساً^(١٣)

لقد أشرنا الى أن الحضارة لدى العرب جاءت من مصادر أجنبية، ولكن في الوقت نفسه ندرك مقدار قيمة هذه الحضارة عندهم، وكيف أفادوا منها؟

ولنعرض لمادة مهمة أخرى نتفق بادية ذي بدء أنها مجتلبة الى شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم، ولم تكن مما أوجده العرب، تلکم هي الخمر.

إن للخمرة أسماء كثيرة في العربية، وإن شيئاً من ذلك ألفاظ

(١١) الديوان ص ٢٣٩.

(١٢) هو قيس بن عبد الله، أبو ليل، شاعر مخضرم، صحابي، توفي نحو سنة ٥٠ هـ. انظر الاعلام ٥٨/٦.

(١٣) عجز البيت في «اللسان» (نحس) وصدرة: يضيء كضوء سراج السليط.

شعرية، أو أنها نعت لها فحلّت محلّها، غير أن الاسم العام لها هو الخمر أو الخمرة. إن مادة «خمر» تعني «التغطية» أو «السُّتْر»^(١٤)، وهذا شيء لا علاقة له بالخمر مطلقاً، في حين أن الأصل للكلمة في الآرامية يعني «التخمير» (Fermenter).

وقد يتساءل المرء: هل يعني هذا أن العنب غير معروف في شبه الجزيرة العربية^(١٥)؟ ليس شيء من ذلك البتّة. غير أن شيئاً آخر هو أن تبيين رُبّ الأعناب، ثم إن هناك شيئاً آخر هو الصناعة العملية للنبيذ الذي يعني تقدّماً كبيراً في الصناعة. لقد ورد الخمر كثيراً لدى المؤلفين العرب، وإن الطريقة التي تحدّثوا بها عن الخمر تثبت ما ذهبنا إليه.

إن شرب الخمر أمانة ثراء وغمى، وأن يسقي المرء أصحابه خمراً لهو شيء من أمارات السخاء، وقد يتجاوز ذلك إلى التبذير والبلذخ، قال عنترة يتمدّح بشربه الخمر:

ولقد شربتُ من المُدامة بعدَمَا

رَكَدَ الهواجرُ بالمشوفِ المُعلمِ^(١٦)

(١٤) تمحل اللغويون العرب فذهبوا إلى أن «الخمر» سميت «خمراً» لأنها تستر العقل.

(١٥) الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر «الأعناب» كثيرة ومنها قوله تعالى:

﴿أَيُّدٌ أَحَدَكُمْ إِنْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ٢٦٦ سورة البقرة.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ ٦٧ سورة النحل.

(١٦) الديوان ص ١٥.

وإن امرء القيس بدا غاضباً لأن مزاياه لم يُعترف بها فقال :

ولم أسبأ الزق الروي (١٧)

إن الشاعر «الحادرة» (١٨) الذي يُدعى قطبة بن أوس يتمدّح
بسخراته بكلمات يتوجه بها إلى حبيته فيقول :

فُسْمِيَّ ما يُدْرِيكَ أن رُبَّ فَنِيَةٍ

بَاكَرْتُ لَدَتَّهُمْ بَادَكْنَ مُنْزَعٍ

بَكُرُوا عَلَيَّ بِسُحْرَةٍ فَضَبَحْتَهُمْ

من عاتقِ كدم الذبيحِ مُشْعَشِعٍ (١٩)

وكذلك زهير في كلامه عن حضيلة بن حسن لم يجد أحسن

من قوله :

أخي ثَقَسَ لا تُتْلَفُ الخمرُ مَالَهُ

ولكنه قد يهلكُ المالَ نائِلُهُ (٢٠)

(١٧) بعض صدر بيت وقامه :

«ولم أسبأ الزق الروي ولم أقبل

لخليلي كُرِّي كَرَّةً بعد إجمال

الديوان ص ٣٥ .

(١٨) الحادرة أو الحويدرة شاعر جاهلي وهو قطبة بن أوس بن محصن، ينسب

إلى غطفان أو ذبيان انظر مقدمة الديوان ص ص ٧ - ١٤ .

(١٩) الديوان ص ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢٠) الديوان ص ١٤١ .

إن غلاء الخمر لديهم كان بسبب نفقات استيراده. إن مصدر الخمر الذي يُستهلك في شبه الجزيرة هو سورية أو بلاد ما بين النهرين، فخمرة حصص وقاصرين «Khoss»، وبابل مشهورة وهي نظير خمرة عانة والأندرين وعذريات (كذا) (٢١).

وقد أشار النابغة الى خمرة «بُصرى» التي تنقل على الإبل في زقاق مختومة. وهل لي أن أقول بضع كلمات في تحريم الخمر كما ورد في كلام الله. لقد جاء في آيتين هما قوله تعالى:

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (٢٢).

وقوله تعالى أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٣).

وفي الآية الأولى تصريح في أن للخمر منافع للناس، ولكن الضرر أكبر من النفع. وهذا يعني أن في الخمر مع ذلك

(٢١) عانة بلدة على الفرات بين هيت والركة، ذكرها ياقوت. وهي ما زالت قائمة مأهولة. و «الأندرين» قرية جنوبي حلب، ذكرها ياقوت وردت في شعر عمرو بن كلثوم. وأما «عذريات» كذا فلم اهتمد إليها ولعلها مصحفة.

(٢٢) سورة البقرة.

(٢٣) سورة المائدة.

منفعة، فما الضرر الذي يفوق هذه المنافع فيها؟

من المحتمل أن الضرر يتأتى مما يُنفَق عليها ويُنذر فيه. وما يدلّ على هذا ما ورد في آخر هذه الآية من أنه مسموح للمؤمنين أن ينفقوا بسعة على أنفسهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢٤). وليس شرب الخمر محرماً في الديانتين اليهودية والنصرانية.

وقد جاء ذكر الخمر في سورة المائدة في الآية التي ذكرناها، وكذلك في الآية التي تليها مع الميسر والأنصاب والأزلام، وهو ما يباشرونه من القداح على أنه رجس من صنع الشيطان^(٢٥). وفي هاتين الآيتين كانت الخمرة مساويةً لأشياء أخرى تنسب إلى عبادة الأصنام، وإن تحرّجها صريح، في حين أنها كانت قبل ذلك شيئاً منهيّاً عنه لم يتصف بالقطع على نحو ما جاء في الآيتين المشار إليهما من سورة المائدة.

وجاء في الحديث مما أورده الطبري في تفسيره: أن عمر بن

(٢٤) ٢١٩ سورة البقرة.

(٢٥) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ الآيتان ٩٠، ٩١ سورة المائدة.

الخطاب قد سأل عن الخمر، فكان الجواب الأول الإشارة إلى الآية ٢١٩ من سورة البقرة، ثم كان الجواب الثالث أن أشير عليه بما ورد في الآيتين اللتين أشرنا إليهما من سورة المائدة .

وإذا كنا قد علمنا أن الخمر يؤق به من خارج شبه الجزيرة، وأنه شيء نادر يتطلب نفقة كبيرة فليس عسيراً علينا أن نقبل أن كلمة «خمر» مما استعير من اللغة الآرامية .

وهناك كلمة أخرى من هذه المادة مستعارة أيضاً هي «خمير»، وهي المادة التي يختمر بها العجين فيخبز . ولم يكن العرب القدماء على معرفة بهذا فقد كان عندهم «الجريشة» وهي حب القمح المدقوق والمطبوخ، وليس الخبز بعينه . وهذه الحقيقة معروفة لدى أمم أخرى كالجرمان والرومان في روما، فقد كان محظوراً عليهم أن يمسوا العجين المختمر، وهذا يرينا أن استعمال الخميرة قد دخل بلاد العرب في زمن متأخر . وينجم عن هذا أيضاً أن العرب ما كانوا على علم بالفُرن وليس له كلمة في العربية، وما يقال من الكلم نحو: تنور، وأتون، وفُرن فإنها كلمات غريبة دخيلة، وأنها دخلت العربية حين دخلت المواد التي تتصل بها . إن الكلمة الأخيرة «فرن» نعرف حالاً، ذلك أنها من اللاتينية «فُرنُس» «Furnus» وقد استعارها العرب عن طريق اللغة الإغريقية . إن كلمة «فُرن» كلمة قديمة وردت في الشعر القديم .

ولما كان الكلام على الغذاء فكذلك الكلام على الملابس الرقيقة، لقد كانت تُجلب من البلاد الأجنبية فالقميص من اليونانية «Camisia»، والبُرْجُد هو من «Paragauda» وكذلك البُرْس من اليونانية، والسُرْبَال من «Sarbelā»، والمِرْط من «merta»، وأشياء أخرى كلها مستعارة دخيلة، ومن ذلك أيضاً مُوق «muq» ومَوْزَج «mawzdj» اللذان يشيران إلى ضرب أنيق من الأحذية، وهو غير الحذاء الصندل «Sandale» الخاص بالأقوام السامية.

ومثل هذا، الكثير من أسماء الأحجار والحلي كالمرجان والجُمان والزَبَرْجَد. غير أن الدَّرَّ، وهو من أشهر أنواع الحلي، من أصل عربي، وتعني «الدَّرة» في الأصل القطرة، وبسبب من المشابهة أطلقت على الحجر الكريم.

ومن المعلوم أن «الدَّرَّ» وهو اللؤلؤ يؤق به من «الخليج»، وفي خصوص هذه الكلمات بدت مسألة عكسية، وهي أن كلمة عربية استعارها الساميون الشماليون من غير العرب.

وهناك أشياء كثيرة متنوعة يمكننا أن نشير إليها بإيجاز، وهي جملة قضايا سياسية ودينية ترتبط بالحضارة وبالحركة الأدبية تركت آثارها، وكان العرب مهَيَّئين لمواجهة أحداث جسم تتنظرهم.

لقد ترك العرب في بداية الأمر إلى سكان البلاد المفتوحة أن

يديرُوا شؤونهم، ولكنهم في خلال الحكم الأموي أمسكوا بأيديهم تلك الشؤون شيئاً فشيئاً، وذلك في طريقهم إلى أن يصبح كل شيء «قومياً» وطنياً. لقد بدأوا بالعملة التي جعلوها إسلامية خالصة.

وبعد هذه الفترة لم يبق للعرب شيء كثير يلمسونه لدى غيرهم من الأمم من حيث الأفكار الدينية وكذلك مما يتصل بضروب الترف، وما هو من قبيل المنتجات المصنوعة غير أنهم صاروا يلمسون العلم الإغريقي، ففي عهد المنصور العباسي ثم في عهد هارون الرشيد ولا سيما في عهد المأمون كثر نقل التراث الإغريقي بوساطة العلماء الترجمة السريان مثل حنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا وآخرين كثيرين غيرهما. إن التأثير العقلي لهؤلاء السريان في العلماء المسلمين قد تمّ بيسر بفضل روح التسامح الذي أفاد منه غير المسلمين عملاً بأنهم أهل ذمة لهم حقوقهم، وبذلك تيسّرت العلاقات بينهم وبين المسلمين.

لقد صارت علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة مادة الدرس للعلماء العرب. وكان الكندي والفارابي وابن سينا والرازي والفرغاني والبّتانى وابن رشد رجالاً مشهورين في الشرق والغرب على السواء، وكانت أسماؤهم معروفة في اللاتينية.

ثم مارس العرب تأثيرهم في أوروبا، فقد أفاد الغربيون منهم

وظهر ذلك في كتبهم وفيما أوجدوه من المنتجات الصناعية. لقد أدخلوا الى إسبانيا وإلى صقلية جملة أصناف من النباتات المفيدة. وكانوا يرسلون الى الغرب منسوجاتهم ومنتجاتهم الثمينة التي تحمل الأسماء العربية. وقد حدث في بعض الأحيان أن رجعت إلى الغرب كلمات غريبة كان العرب قد غيروها في إستعمالهم حين استعاروها من الغربيين. ومن ذلك جملة من أسماء الأوزان والمقاييس، ومن ذلك الأونسيا اللاتينية (Uncia) التي تحولت إلى الإغريقية، ثم منها استعارها الآراميون فكانت عندهم «أوقيا» (Uqya) التي صارت في العربية «أوقية»، ثم شاعت في الغرب باسم «اوكا» «Oca» التي هي ١٢/١ من الرطل، وكذلك «الأوقية» «الأونسيا» التي هي ١٢/١ من «الليبرا» «Libra».

إن كلمة «ليبرا» هي يونانية الأصل، أخذ منها الآراميون كلمة «رطلا» «Retla» ومنه تحولت الى العربية «رطل»، ثم عادت الكلمة الى الغرب بعد شيوع صيغتها العربية فكانت «روتولا» «Rotola» وهي كلمة ما زالت معروفة في صقلية والقسم الجنوبي من إيطاليا.

وهناك كلمة أخرى عرض لها هذا النوع من الحركة والاضطراب، تلكم هي كلمة «قَصْر» بمعنى القلعة أو الحصن. إنها الكلمة اللاتينية في الأصل «كاسترُم» «Castrum» أخذها

الإغريق، ثم تحولت إلى الآرامية «قَسْطَرا» «Castra»، وفي الآرامية الغربية «قصرا»، ثم صارت في العربية «قَصْر». وهذه الصيغة العربية ولدت الكلمة الإيطالية «كاسيرو» «Cassero»، والاسبانية «الکزار» «Alcazar».

ومثال آخر هو كلمة «Abricot»، ولما كان المشمش ينضج قبل الخوخ «Les Pêches» الذي يشبه دعاهما الرومان «برسيكا» «Pera» و«براكوسيا» «Pera Præciosa»، ومن هذه الأخيرة «براكوسيا» جاءت الكلمة الإغريقية. وهذه الكلمة تبدأ بحرفين صامتين «Consonnes» فكان لها أن تكون في اللغات السامية مبدوءة بحرف صامت تتبعه حركة أي صوت مصوّت «Voyelle» ثم يليه الحرف الصامت الثاني، ولما كان الحرف «P» يبدل به الحرف «b» صارت الكلمة في الآرامية «بَرْقوقا» أو «بَرْقوقيا»، «بضم الباء أو فتحها». ومن هذه الكلمة العربية الأخيرة أخذ الإيطاليون «Albicocca» وكذلك الكلمة الفرنسية «Abricot» والكلمة الإسبانية «Albarcoque».

إن الكلمات التي هي من أصل عربي كثيرة في اللاتينية الجديدة «Neo-Latin»، وذلك بقطع النظر عما في اللغة الإسبانية من الكلم العربي الكثير الذي كان له أسبابه المعروفة.

إن الكلمة «Leluth» هي في الإيطالية «Liuto» وهي آلة

موسيقية وترية من أصل شرقي وهو «العود» في العربية .

ومن ذلك كلمة «alcova» و «alcôve» من الكلمة العربية «القبة» التي هي من بين معانيها الكثيرة في العربية تفيد معنى كلمة «alcôve» . وكذلك كلمة «baldacqui» و «baldacchino» التي اشتقت من كلمة «بغداد» المدينة المشهورة، لقد كان هذا الاسم في القرون الوسطى «Boldac» و «Boldacco» . إن كلمة «baldacqui» تعني القادم من بغداد . ان صنع «الأريكة» مع تحملها المنقوش البغدادي كان يخطى بشهرة عظيمة، ومن هنا دلت هذه الكلمة على هذه «الأريكة» ذات المخمل المنقوش . ان قماش «الموسلين» من أصل عربي، واسمه يشير إلى أصله من مدينة «الموصل» التي اشتهرت بصناعة الانسجة الرقيقة .

إن الكلمة الفرنسية القديمة «truchement» التي هي من «drogma» لم تكن إلا الكلمة العربية «ترجُمان»^(٢٦) .

وقد كثرت الكلمات العربية في الكلمات العلمية في القرون

(٢٦) أقول : من المفيد أن نذكر أن هذه الكلمة من المشترك السامي القديم، ذلك أن «الترجمة» هي من «تركوم» الكلمة المعروفة في تاريخ اللغة العبرانية، وهو ما كان يكتب من أسفار العهد القديم بالأرامية وتحت النص نفسه بالعبرانية، وهذا يشير إلى أن العبرانيين اليهود صاروا يقرؤون النص الآرامي حين كانت لغتهم مهجورة منسية في حقبة ظهور السيد المسيح - عليه السلام - .

الوسطى ، وليس من أحد ينكر أن كلمة «Algèbre» أو «algebra» عربية الأصل .

وفي كلامنا الموجز هذا أعطينا لمحة عن شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام متعمدين ألا يشمل الكلام العربية الجنوبية التي سنفرد لها الكلام في «المحاضرة الرابعة» .

المحاضرة الرابعة
في
«العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة»

العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة

يؤلف العرب الجنوبيون في شبه الجزيرة العربية بحضارتهم القديمة نقيضاً للعرب الشماليين، تلك الحضارة التي من المحتمل أن تكون أصولها في أرض البابليين. لقد كَوَّن هؤلاء العرب الجنوبيون دويلات مزدهرة قبل زمن طويل من أي من الممالك التي قامت في الشمال. لقد كان أوائل من قطن في تلك الجهات مجموعات أسطورية^(١)، كما يشير المؤلفون العرب، نخس منهم قوم عاد الذين دُمِّروا بما عصوا ربهم وكفروا. وكان بطلهم عاد الذي سَمَّوا به أول ملك للعرب.

غير أنه من حسن الحظ أننا عثرنا على كتابات كثيرة وقفنا منها على تاريخ القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية. إن

(١) قوم عاد ليسوا من المجموعات الاسطورية، فقد تحدث عنهم القرآن، ولكن دون تحديد موطنهم، على أنهم كانوا معروفين لدى العرب، وقد ارسل الله إليهم أخاهم هوداً فكذبوه وعصوه، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية أنت عليهم وتركتهم كاعجاز نخل خاوية.

بإمكاننا أن نتبين أربع مراحل كبيرة في تاريخ هذه البلاد:

أولاً وأقدمها «مرحلة ملوك معين» أو المعينيون. وقد رأى بعض العلماء أن هذه الدولة يعود تاريخ قيامها إلى أكثر من عشرة قرون قبل الميلاد، في حين كان آخرون أكثر حذراً وحيطاً في هذا إذ رأوا أنها قامت في حوالي سنة ٨٠٠ قبل الميلاد.

وثانية تلك المراحل المرحلة التي تخص «مكرب» وملوك سبأ التي تلتها «مرحلة ملوك سبأ وذو ريدان».

إن هؤلاء كانوا قد حكموا منذ بداية القرن الأول للميلاد وإلى سنة ٣٠٠ م تقريباً. وأما «المرحلة الرابعة» فهي «مرحلة ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمّانات»، وهذه «المرحلة» عرفت كثيراً باسم الحميريين أو الأموريين، وقد انتهى عصر هؤلاء وحكمهم بانتصار الاحباش عليهم سنة ٥٥٢ م.

إن ممالك أخرى نحو «القتبانين» في حضرموت قد أشارت إليها الكتابات القديمة. إننا لا نعرف لغة هؤلاء العرب الجنوبيين إلا من خلال الكتابات التي اكتشفت بقدر كبير، وعرفت مادتها منذ أكثر من نصف قرن. إن بعضاً من هذه النصوص المكتوبة تعود ربما إلى القرن التاسع، وهي تلك التي تخص المعينيين، وهي أقدم المراحل في تاريخ هذه البلاد. إن حل رموز هذه النصوص قد أثار صعوبات كبيرة، غير أن

تحليل النصوص وتفسيرها قد أدى إلى نتائج أكيدة في كثير منها.

إن تلك النصوص في الغالب موجزة، وهي تشتمل في مجملها تقريباً على كلمات تتكرر هي بعينها، ولكنها كافية في إفادتنا بالمادة اللغوية عن هذه اللغة، وعن الخصائص التي تتميز بها عن العربية الشمالية. إن أغلب هذه النصوص ما يقدّم من ندور، وانما تظهر في مادتها غط الحياة الهادئة المطمئنة التي يحياها الناس. إنهم يقدّمون الضحايا ويتقربون بقرايين الى الآلهة: «إمسكه» و«أثّار» و«شمس» شاكرين لها ما أسدت إليهم من خصب وبركة في الزرع، وثناء في العلة الزراعية في البلاد.

إن أغلب هذه النصوص يكشف في أقل الاحتمالات وجود أدب إن لم يكن لها أي أثر آخر. إن المناطق الواسعة في شبه الجزيرة العربية الجنوبية مزدهرة الى حد بعيد، حتى إنها أطلق عليها في الزمن القديم «العربية السعيدة»: إن هذه الثروة ترجع الى سبيين رئيسيين هما:

١ - خصب الأرض الذي كان من بركته من بين أشياء كثيرة العطور المشهورة «aromata» التي كان الطلب عليها شديداً في الزمن القديم.

٢ - التجارة التي تمتد طريقها من الهند إلى البحر الأبيض

المتوسط، وذلك في اتباع الطريق البري . وكانت القوافل تصل الى «مأرب» وهي «مَرْيَّة» لدى الاقدمين وهي عاصمة السبئيين، مارةً بمكة، ومنها تواصل إلى غزّة ومنها إلى البحر. غير أن التقدم في الملاحة أدّى بعد قليل من الزمن الى تبدل الطريق الذي تتبعه القوافل . وقد اتجهوا شيئاً فشيئاً إلى تفضيل الملاحة في البحر الأحمر. إن هذا ممّا ألحق الضيم برخاء البلاد وثروتها. وأكثر من ذلك ما حدث من انكسار السد المشهور المعروف بـ «سيل العرم» وكان من ذلك أن أعداداً كبيرة من السكان قد هاجرت إلى الشمال. وكان من ذلك أن جملة قبائل سكنت الشمال وهي من أصول جنوبية مثل تنوخ وغسان وطيّء.

إن ملوك المرحلة الرابعة وهم الحميريون أو الأموريون قد سيطروا كما أشرنا على كل البلاد إلى غاية البحر. وكانوا أيضاً غرضاً لهجمات الأعداء ولا سيما الأحباش، ذلك أن مملكة الحميريين، في الوقت نفسه، أو قبل ذلك بقليل، دولة جديدة قد قامت على الساحل الآخر من البحر الأحمر، تلكم هي مملكة أكسوم. إن قيام هذه الدولة راجع من غير شك إلى العرب الجنوبيين الذين بانتشارهم البطيء كما يقول «رينان»، قد هاجروا الى الحبشة التي كان أهلها من جند آخر مختلف عنهم. ولن أتكلّم على أولئك السكان الذين يمكن أن ندعوهم «محليين» أو «وطنيّ الحبشة» وهم الأجداد البعيدون «كنسا» أو

«باريا» ولم يسكن هؤلاء كما يبدو إلا في المنطقة الكائنة في شمال الهضبة الحبشية .

إن هذه الهضبة على العكس كانت محتلة من قبل «الأكاو» «Agaau» وهم فرع من أسرة كوشية التي يكون قسم منها «البيجا» «Les Bedja» في الشمال و«الساو» «Saho» و«الدناكيل» «Danakil» في الشرق، والصوماليين و«الكالا» «Les Galla» في الجنوب .

إن «الأكاو» بالرغم مما قاسوا من اضطهاد ولا سيما في القرن السابع عشر، هم كثيرون عدداً، ولو أنهم انحازوا في داخل الجبال . إن العرب الجنوبيين الذين هاجروا الى الحبشة جلبوا معهم أصولاً حضارية لم يكن في طوق الكوشيين أن يأتوا بها . لقد أقاموا دولة دامت قرناً طويلاً التي اختلط تاريخها بتاريخ شبه الجزيرة العربية، أو بتاريخ بيزنطة، أو بتاريخ اليمن وحتى في زمن متأخر اختلط بتاريخ أوروبا .

إن في المساحة الإفريقية الممتدة بعيداً من البحر الأبيض المتوسط ومصر لا توجد بلاد غير الحبشة ذات تاريخ، وليس في غير هذه الرقعة من القارة الإفريقية إلا آلاف من الأجيال قد تتابعت إلا أنها لم تترك أثراً، ودون أن يكون قد ولد فيها غط حضاري كيفما كان .

إننا لا نعرف على وجه الضبط متى بدأت هجرة الساميين

إلى الحبشة . ولكنها بالتأكيد لم تكن أسبق من القرن الخامس قبل الميلاد . ولعلها كانت متزامنة مع هجرة هؤلاء إلى شمال شبه الجزيرة . إن الأخبار الرسمية للأحباش جعلت بداية مملكتهم قبل عشرة قرون من التاريخ الميلادي تقريباً ، وإن أول ملك ربما كان منليك بن سليمان ، وهو ابن ملكة سبأ الذي حمل معه إلى الحبشة تابوت العهد بين بني إسرائيل . وهذه أسطورة ، وقد نفهمها بيسر ، وأنها لا تستند على أساس تاريخي . وأقدم وثيقة صحيحة نملكها هي الكتابة الإغريقية لأدوليس «Adulis» «Zola» و«الطواف» في البحر الأحمر ، وهذه لا تخولنا أن نذهب إلى أبعد من القرن الأول الميلادي .

تخبرنا الكتابة الإغريقية المشار إليها : أن ملكاً نجهل اسمه كان قد أسس مملكة أكسوم ، وكان قد أعطى هذه المملكة رقعة محدّدة . أما «الطواف» فإنه يشير إلى خلف له ، إما بعده مباشرة ، وإما غير لاحقٍ له مباشرة ، ولا نعرف هذا الأمر ، ويدعى «زوسكاليس» «Zoskalès» ، وقد وسّع هذا المملكة .

إن بدايات هذه المملكة كانت غامضة غير واضحة ، وبقيت كذلك إلى أن تمّ اعتناقهم النصرانية ، وكان ذلك على يد القديس «فرومانس» «St. Frumence» وذلك حوالي منتصف القرن الرابع ، وإذا أردنا الكلام على وجه الضبط والتدقيق نقول : إن ذلك قد تم بدخول النصرانية . ذلك أنه لا يمكن أن

نفترض ان جمهور الناس في البلاد قد اعتنقوا النصرانية مباشرة، لأننا نرى أن الوثنيين في البلاد. جمهور كبير من الناس بعد القرن الرابع بزمان طويل وطوال القرن الخامس. غير أن الدين الجديد كان قد أحدث تقدماً مستمراً، وفي خلال القرن الخامس كان الملك نفسه قد اعتنق النصرانية. ولهذه الحقيقة انعكاسات في الكتابات العظيمة التي وصلت إلينا والتي تقدّر الآن كل التقدير قرب أكسوم.

لقد ذكر الملك في إحدى هذه الكتاب، وأنه فيها شيد مذبحاً أو عرشاً إلى الآلهة التي دعاها «مَحْرَم» و«بِجَر» و«مِذْر» (Mahrem, Beher, Medr)، وهذه تقابل «Ares» «Mars» إله الحرب في «Poseidon»، وإله البحر، وإله الأرض.

إن هذا النص يرينا أن ملك أكسوم كان وثنياً في ذلك العهد، وأنه يؤكد أيضاً، عند الحاجة، أن أسطورة تحدّره من «مَتيك» و«سليمان» ليس لها أساس تاريخي. غير أنه بعد ذلك بزمان قليل رأينا أن هذا الملك نفسه شيد مذبحاً، ولكن ليس في «مَحْرَم»، ولا في «بِجَر»، ولا في «مِذْر»، بل أهدها إلى إله السماء الذي منحه الملكية والذي نجّاه. إنه يعبد هذا الإله، وأنه تخلّى عن كل عمل غير صالح بخصوص رعيته، وذلك دليل على عبادته وتقواه.

ولم يكن ذلك اعترافاً صريحاً بحسب الإيمان المسيحي

وبموجب تعاليمه الدينية كما كان أن نتوقع من هذا الشيء نظيراً له في النصف الثاني من القرن الرابع المسيحي، أو ما كان بعد المجمع المسيحي في «نيسه» «Concil de Nicée». ولن نجد، كما يبدو لي، من الجرأة ما نفترض أن «إزنا» «Ezana»، وهو اسم الملك، لم يشأ أن يؤذي مشاعر الكثيرين من أفراد شعبه حين بقي إلى هذه الفترة وثياً، ولعله وجد قدوته في كون قسطنطين الكبير في أول هذا القرن نفسه الذي منح الكنيسة الأمان دون أن يعلن حربه على الدين السائد في الامبراطورية الرومانية. ولكن اعترافاً في اعتقاد كهذا يكفي تماماً أن يكون شاهداً على التحول الكبير المفاجيء في بلاط مملكة أكسوم. لقد اعتقد الملوك وآمنوا بالنصرانية على أنها دينهم «الرسمي». ولهذا الحقيقة أهميتها العظمى في مستقبل بلاد الحبشة.

وفي هذه الفترة كان مصير الشرق بيد قوتين عظيمتين: الأولى نصرانية وهي للأباطرة الإغريق، والأخرى مزدكية وهي ديانة الساسانيين. وكانت كل دولة مسيحية بسبب من هذا صديقة لبيزنطة على أساس أن هذه هي حامية للديانة النصرانية.

ولم يمض وقت طويل على الأحباش في إظهار النصرانية ديناً لهم، حتى بدأوا من غير شك في الوقت نفسه ينظرون إلى مصالحهم السياسية.

إن مملكة الحميريين مع أمرائها الثمانية المتحالفين كانوا قد اتحدوا حوالي سنة ٥٠٠ م تحت سطوة الملك ذي نواس. وكانت اليهودية والنصرانية ما زالتا منتشرتين في اليمن. فأما اليهودية فكانت بفضل الاسرائيليين الكثيرين في شبه الجزيرة العربية، وأما النصرانية فبفضل المرسلين الدعاة من السريان الأحديين «monophysites» الذين انهزموا من ظلم الأباطرة الإغريق.

وكان الملك ذو نواس يدين باليهودية، وقد اضطهد نصارى نجران اضطهاداً شديداً كما ورد في الأخبار. لقد قُتل طائفة منهم بالسيف، كما رمى آخرين في هوة تتقد نيرانها. وبحسب الرأي السائد أنهم أُلْقوا في الأخدود كما تشير الآيتان (٤، ٥) من سورة البروج:

قال تعالى: ... قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ.

وهاتان الآيتان جاءتا في معرض تشجيع المسلمين المضطهدين في مكة من أصحاب الرسول - ﷺ - من قبيل ضرب المثل للعقاب الذي لحق بالمضطهدين من المسلمين الأولين.

إن نصارى اليمن الذين لم يكن لهم أن يأملوا شيئاً من البزنطيين، الذين كانوا بعيدين عنهم، قد اتجهوا الى الأحباش

النصارى. لقد أقدم الملك «كالب» على إرسال بعثة واستطاع بذلك أن يكون سيد البلاد. لقد أتى الأحباش بطريقة ما الى البلد القديم الذي لم يقطعوا عنه الصلات السياسية، فوجدوا أن هؤلاء قد تغيروا تغيراً عميقاً بسبب اختلاطهم بالأجناس الكوشية.

لقد غزا الأحباش الحميريين، وأحكموا سيطرتهم على اليمن التي كانت محكومة بوساطة، نائب للملك، وكان أول حاكم فيها «أريات»، ثم أبدل به بعد قليل من الزمان «أبرهة» المشهور. لقد شيد «أبرهة» هذا في صنعاء كنيسة دُعيت بـ «القُلَيْس»، وكانت كما أكدت الأخبار آية في الجمال فاقت سائر الكنائس في ذلك العصر.

غير أن سيطرة الأحباش على اليمن كانت قصيرة الأجل، وكان من أشهر ما قاموا به في خلال هذه الفترة، هو حربهم المشهورة وغزوهم لمكة. وكان الغرض من بناء أبرهة للكنيسة المشهورة، كما تقول الأخبار، هو أن يجذب الحجاج من جميع بلاد العرب إليها ويصرفهم عن مكة والكعبة.

ويقال في الأثر: أن أحداً من قبيلة فُقيم من المنعلقين بعبادة أهل الشمال والحج الى الكعبة قد آله ما عزم عليه «أبرهة» فغضب فقصد «القُلَيْس» في صنعاء ودنَّسها، فكان من جرَّاء ذلك أن استشاط «أبرهة» غضباً، فأراد أن ينتقم مما لحق

بكنيسته من إهانة وتدنيس بشن الحرب على مكة، غير أنه لما كان في جيش «أبرهة» «القبيلة» المشهورة لم يكتب له النجاح وخسر المعركة خُسْراً تاماً^(٢). وكان النتيجة أن خاب ما أمّله أبرهة فتحقق العكس، ذلك أن ألهب الشعور الوطني فأسهم في إيقاظ العرب الحجازيين. ومع ذلك لم يُفلح أهل اليمن في التخلص من الأحباش إلا بمساعدة إحدى القوتين العظيمتين في الشرق في تلك الفترة.

وكان سيف بن ذي يزن أحد القوّاد العرب قد توجه أول الأمر إلى القسطنطينية، غير أن طلبه للنجدة قد رُفض. ولهذا صارت بيزنطة الحليف الطبيعي للحبشة بفضل العامل الديني.

(٢) ورد في أغلب كتب التفسير: أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن بنى كنيسة بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فعاد رجل من كنانة وتغوّط فيها لئلا ولطخ حدرانها بالنجاسة احضاراً لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، فعاد مكة بحش كبر على القبيلة، يعلمهم فيل عظيم هو أعظم القبيلة، فلما وصل إلى فوس من مكة فرّ أهلها إلى الجبال، خوفاً من خنذه وحروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، حمر في منقاره، وحجران في رجله... .

وروي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي - عليه الصلاة والسلام -، وفيها كان قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كمصف مأكول﴾.

انظر التفسير الكبير ٩٦/٣١ والقرطبي ١٨٧/٢٠، والبحر المحيط

٥١٢/٨

ثم توجه سيف بن ذي يزن شطر بلاد الفرس، وكان ملك الحيرة قد قدّمه إلى بلاط كسرى أنوشروان، وقد حصل من هذا على المساعدة في حربه مع الأحباش.

غير أن اليمن لم تعمل شيئاً سوى أنها تبدّلت من يحكمها من الأجانب، لقد صار اليمن إقليماً فارسياً واقترب من نهايته.

وقد كانت اللغة في جنوبي بلاد العرب في مرحلة ضعفها وانحلالها. وإذا كانت هذه اللغة ما زالت معروفة متداولة عند ظهور النبي محمد - ﷺ - في جهات عدّة، فقد صارت لغة ميّنة من حيث كونها لغة عامة، وقد استبدل بها العربية الشمالية. وقد تركت هذه اللغة أثراً وحيداً هو اللهجات الحديثة الدارجة كلهجات الأمهاريين ولهجات جزيرة سوقطرة التي أخذت تقريباً من اللغة القديمة، ولكن هذه اللهجات لا قيمة لها من الناحية الأدبية.

وكما كان الحال في مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة قبيل الاسلام، وكذلك كانت البلاد العربية الجنوبية قد توقفت فليس لها حياة خاصة بها مستقلة. وليس في طرق هذه الحياة ان تقاوم الحركة الاسلامية فتقف عقبة في طريقها.

لقد فقدت اليمن كل قيمة مفيدة في التاريخ العام، إنها لم تكن إلا إقليماً بسيطاً ذا نظام خِلَافي (نسبة الى الخلافة) كما أن فيه سلاطين كان لهم سلطان ونفوذ في مصر. وهؤلاء كانوا

يؤلفون في زمن ما دولة مستقلة تقريباً وذلك في عهد «الرسوليين» الذين حكموا من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، وقد ازدهرت العلوم والآداب في عهدهم. وبحسبنا أن نقول: أن «الفيروز آبادي» المشهور صاحب «القاموس المحيط» كان قد عاش في بلاط أحد امراء هذه الحقبة. غير أن هذه الدويلات الصغيرة هي كيانات ثانوية بحق، أو أنها دول غير معروفة في تاريخ العرب. إن البلاد العربية الجنوبية التي كانت فيما مضى قوية جداً، وذات ثروة عظيمة لم يعد لها إلا مكان متواضع في التاريخ العام للعالم الاسلامي.

لقد حصل شيء من هذا للأحباش. تقول الأسطورة القديمة: إن الملك «كالب» بعد أن تغلب على الملك الحميري ذي نواس أصبح راهباً قضى بقية حياته معتزلاً بعيداً عن العمل. وقد يكون المرء ممتحناً في أن يرى في هذا تاريخ الحبشة. إن الفتوحات الكبرى التي قام بها العرب قد فصلت الحبشة فصلاً تاماً عن بقية العالم، ولا سيما عن الامبراطورية البيزنطية. لقد انحى في هذه الأحقاب وما بعدها كل أساس بأذن للحبشة أن تدخل في خضم الأحداث التي تضطرب في الشرق. وقد انتهت المرحلة الأولى من العصر الأدبي الحبشي الذي سُمي في بعض الأحيان «الأثيوبي» أو «الجعزي» وذلك في عهد هذه الملكية.

إن الشخصوس البارزة الأولى في هذا الأدب هي الكتاب والنقوش، وذلك أن في مملكة أكسوم كانت أقدم النصوص في اللغة الاغريقية (النقوش) لأدوليس التي مرّ ذكرها قبل صفحات، وقد أشارت الى أن ملك أكسوم يشير إلى انتصاراته على الشعوب المجاورة له.

إن مثل هذه الأحوال غير نادر كما نعرف، فالنبطيون الذين يتحدثون بعربية عامية دارجة يستعملون في كتاباتهم اللغة الآرامية، وذلك لأن لغتهم ليست لغة أدبية. ولكن وجود الأنباط في وطن خاص بهم قد ذهب وانتهى قبل أن تكون لهجتهم الدارجة قد تحولت الى لغة مكتوبة.

ولم تتأخر اللغة الوطنية للأحباش في تحولها الى لغة مكتوبة، فقد بدأ بالتدريج ظهور كتابات باللغة الوطنية الى جانب النصوص الإغريقية في أول الأمر، ثم ظهرت كتابات باللغة الوطنية وحدها. ولم تبدأ النصوص الأدبية بهذا المعنى الا حين ترجمت نصوص الكتاب المقدس ولا سيما الأناجيل من أصل إغريقي، غير أن من الغريب أن نلاحظ في عصرنا أن هذا النص الديني المشار إليه لم يكن مما يتبع في الكنيسة المصرية، إذا علمنا أن الكنيسة المصرية هي أم الكنيسة الحبشية. غير أن هذا النص يدعى بالأحرى النص «السورياني» أو «السرياني الغربي».

على أن هناك إشارة من شأنها أن تشرح حقيقة مهمة هي أن دخول النصرانية راجع في الحقيقة الى القديس «فرومنس»، غير أن انتشار هذه الديانة وتقدمها يعود الى السوريين. على أن اللغة نفسها تؤيد تماماً هذه النتيجة، وذلك لأن الكلمات التي ترجع الى الديانة النصرانية ذات صبغة آرامية واضحة، ومن ذلك أن الإيمان أو الاعتقاد يُدعى في هذه اللغة «هايمانوت» وهو من الكلمة السريانية «هايمانوتا» وان «البنساتوك» «Le Pentateuque» يُدعى «أوريت» وهو من الكلمة السريانية «أورياتا».

وقد ترجمت عن اللغة اليونانية الى اللغة الجعزية كتب أخرى إلى جانب الكتاب المقدس، وهذه الكتب نشتمل على الأسفار المشكوك فيها «apocryphes» مثل كتاب «هينوش» «Hénoch» كما نشتمل على كتب الزهد، أو كتب الدعاء المسيحية أو كتب العلم المسيحي «Christologie». وفي أقل ما يمكن أن يتامله الدارس في محتوى هذه الكتب وفي أنواعها يقتنع بأن هذه الحركة الأدبية انطلقت من أوساط الكنائس والأديرة، وليست من عامة الشعب على عكس ما تحقق لدى العرب. إن ذلك لا يمكن أن يكون قليلاً في كشفه عن الحقيقة الكلاسيكية لهذه اللغة الجعزية.

لقد توقفت الحياة وكل ما يتصل بالحالة السياسية أو الأدبية

طوال خمس مئة سنة أو ست مئة ابتداءً من القرن السابع .

قال جيون : لقد دخلت الحبشة في سبات عميق دام عدة قرون انقطعت فيها عن بقية العالم كما أنها نُسييت من بقية العالم أيضاً . لقد أنتهزت جماعات كوشية بدائية تقريباً وهم البيجا والساهو والدناكيل فرصة تدهور هذه المملكة وانحلالها فراحت تحتل مناطق في الشمال والشرق .

على أن الحبشة كانت قد شهدت انبعاثاً لم تعرفه بلاد العرب الجنوبية . لقد قامت فيها دولة صغيرة في إقليم «لاستا» قرابة سنة ١٢٠٠ م ، ولكنها سرعان ما انتقلت زعامتها إلى أسرة ملكية أدعت تحدرها من «منليك» و «سليمان» وذلك في سنة ١٢٧٠ م ، وقد سيطرت هذه الأسرة شيئاً فشيئاً على جميع بلاد الحبشة ، وأسست مملكة ما زالت في عصرنا هذا^(٣) .

لقد اندثرت اللغة الجعزية، ولكن اللهجات الحديثة المتداولة في شمال بلاد الحبشة وهي : التيكرية «Tigrāi»، والتيكرينية «Tigrinnā»، والتيكرية «Tigré» أخذت محلها شيئاً فشيئاً في قسم من البلاد في الأقل . وقد تولدت هذه اللهجات من اللغة الجعزية، في حين جاءت اللغة الأمهارية من اللغة الحبشية القديمة، وهي اخت اللغة الجعزية التي كانت من

(٣) يريد الاستاذ غويدي مؤلف هذه المحاضرات بقوله : السنة التي أُلّف فيها محاضراته وهي سنة ١٩١٩ م .

المحتمل متداولةً في جنوب بلاد الحبشة، والتي يمكن أن تلحق باللغة الدارجة في حضرموت. إن هذه اللغة القديمة لم يبق لها أثر، وذلك لأنها في الحقبة التي كانت فيها متداولةً كانت بلاد الحبشة الجنوبية غارقة في ظلام من الوثنية والجهل.

ويقابل هذا أن ما أخذ من تلك اللغة القديمة وهو من الأمهارية قد صار اللغة الرسمية الأكثر انتشاراً في كل البلاد الحبشية. إن هذه الأمهارية قد صارت اللغة المكتوبة، ولعل ذلك قد تمّ لمعاداة الدعاية الكاثوليكية للجزويت «اليسوعيين» في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويشبه هذا تقريباً ما أوجدته الدعاية الكاثوليكية البولونية، من ردّ فعل في الأدب الروسي الارثودوكسي ومع ذلك ظَلَّت اللغة الجعزية اللغة الأدبية الحقيقية، كما أن مرحلة جديدة للأدب الحبشي بدأت بيقظة المملكة التي ادّعت نسبتها إلى النبي سليمان.

لقد غلبت الترجمة على النصوص الأدبية في هذه المرحلة كما كان الحال في العصور القديمة، غير أن الترجمة في هذه المرحلة الأخيرة لم تكن من الأصول الإغريقية بل كانت ترجمة للنصوص العربية. وقد يكون من الغرابة أن تعتمد الكنيسة الحبشية التي تتبع الكنيسة القبطية إلى ترجمة الكتب الإغريقية والعربية بدلاً من الكتب القبطية، وعند ازدهار الأدب القبطي، لبطريركية الاسكندرية كانت الحبشة غارقة في جهل مطبق،

وكانت النصرانية في حالة يرثى لها. ولما تهيأ لها أن تستيقظ من سباتها كانت العربية قد حلت محل القبطية حتى في بطيركية الاسكندرية.

ومنذ القرن الثالث عشر كان للحبشة تاريخ متبع، مستفيدة من ثروة أدبية قديمة وذلك بزعامة جماعة من الملوك، بعد أن عانت من الأذى مع ملوك آخرين.

لقد تعرضت الحبشة مرتين لغزو موجه مشثوم، كان أحدهما ما قام به «محمد كران» الصومالي في القرن السادس عشر الذي أوشك أن يدمر المملكة، والآخر ما قام به جماعات «الكالا» «Les Galla»، لقد قامت جماهير هذه الجماعات الكوشية باحتلال قسم بارز من جنوب الحبشة وحصلت على قوة ورجاحة لا سبيل إلى إنكاره.

إن الأحداث الكبيرة التي عرضت للحبشة في عصرنا الحاضر معروفة جداً بحيث يكون من الضروري أن نذكرها هنا.

خاتمة

لقد رسمنا الخطوط الكبرى لما لشبه جزيرة العرب قبل الاسلام من دور في التهيئة للتاريخ اللاحق. إن قيام الممالك الشمالية في الحيرة وبلاد الشام «الغساسنة» ومملكة كندة^(١) قد ساهم بقوة في بناء اللغة الشمالية وتقدمها كما ساهم في إيقاظ الأفكار.

إن الحضارة القديمة في جنوب بلاد العرب قد أثرت تأثيرها وفعلت فعلها، فلقد رأينا جماعات من العرب الجنوبيين قد عبروا الى الحبشة وأقاموا مملكة مستقلة استمرت زمناً طويلاً، في حين كانت بلاد العرب قد فقدت أهميتها عند تحوّل مركز الخلافة عنها إلى البلاد المفتوحة في سورية وبلاد ما بين النهرين. وقد أثرت في عصرنا تيارات أخرى وأفكار جديدة في تاريخ الشعوب الإسلامية^(٢). غير أن دراسة الأصول ذات قيمة ثمرة في جميع الأحوال، ومن هنا كانت دراسة شبه الجزيرة في العصور التي سبقت الاسلام جدية بلفت انتباه جميع أولئك الذين يعينهم التاريخ المفصل للعرب.

(١) مر بنا ما أشرنا إليه من الاكتشافات في قرية «الفاو» وهي المكتبات التي

كانت بالخط المسند، وقرية «الفاو»... كانت حاضرة مملكة كندة

(٢) من المعلوم أن تاريخ هذه المحاصرات كان في سنة ١٩١٩، وهذه وجهة نظر

الاساذ عويدي مسنوحة من أحوال العرب في تلك الحقبة. ومن غير شك

أن العرب صار لهم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وفي حقبة ما بين

الحربين العالمتين، مكان عظيم يحسب له حساب خاص.

فهرس

٥ مقدمة
٩ تمهيد
	- المحاضرة الأولى: في شبه جزيرة العرب
١١ ما قبل الإسلام
	- الممالك في شمالي شبه جزيرة العرب
١٣ وفي وسطها قبل ظهور الإسلام
١٣	● مملكة تدمر
٢٢	● مملكة الحيرة
٣٣	● مملكة الغساسنة
٤١	● مملكة كندة
٤٥	- المحاضرة الثانية في التقدم العقلي لدى العرب
٤٧	● التقدم العقلي لدى العرب
٦٣	- المحاضرة الثالثة في التقدم المادي
٦٥	● التقدم المادي
٨٣	- المحاضرة الرابعة في «العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة»
٨٥	● العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة
١٠٣	- خاتمة

صدر عن دار الحداثة لعام ١٩٨٥

- تطور نظم ملكية الأراضي في الإسلام محمد علي مصر الله
- من وثائق الصراع العربي الصهيوني ١٠/١ د. سمير أبو
- تعريب التراث العربي د. محمد عيسى حارحية
- التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا (مجلد) د. شاميل عيسوي
- تاريخ العرب في سوريا قبل الإسلام د. ريتيه ميسو
- مدخل إلى التحليل البيوي للنصوص إشراف بليلة مرسل
- العرب والديمقراطية د. خليل أحمد خليل
- العرب والقيادة - بحث في علم اجتماع القيادة عند العرب د. خليل أحمد خليل
- المفاهيم الأسلمية في علم الاجتماع د. خليل أحمد خليل
- الفكر السلمي عند أبي الحسن الماوردي د. أحمد مارك المندادي
- فلسفة الرفض د. باشلار - ترجمة د. خليل أحمد خليل
- مذهب الفرائض د. يعقوب فام
- أصل العنف والدولة د. محمد عابد الجاربي - عبد السلام بنعد العالي - حسين مروة - سعيد
- مداخلات - مباحث نقدية حول أعمال بنصعيد - هشام جعيط
- الفكر الأوروبي ٢/١ د. بول هازار
- مشكلات الوجود والمعرفة في الفكر الإسلامي د. عليّة عاترة
- تاريخ الإمارات العربية في العصور الوسطى د. مالكلي
- الثقود والسياسة النقدية في الاقتصاد البيئي الحديث د. عبد العزيز أحمد سعيد المظفر
- الصراع للتكنولوجيا الدولي د. شيمعان جي - ترجمة آمنة المصري نور الدين
- كيف نبني بيتاً د. أعداد وتقديم الهندس علي حميد - ترجمة للهندس أسعد ادباب
- موم الثقافة العربية د. أعداد وتقديم - فرحان صالح
- شخصية الخلف في الرواية العربية الحديثة د. عبد السلام الشاذلي
- حول قضايا التشريب والتجريب في الآب العربي المعاصر د. عبد السلام الشاذلي
- السمات الواعية للتجربة الشعرية الجزائرية د. زبيب الأعرج
- كنوز التسلسل النحوية - مقارنات من الشعر الإنكليزي ترجمة حكمت تلمس
- علم الجمال د. هنري لوليفر
- لمصول في النقد د. غالب هلسا
- التطورات اللسانية والبلغية عند العرب د. محمد الصغير بياي
- الشعر في إطار العصر الثوري د. عز الدين اسماعيل
- أثر الرمزية العربية في مسرح توفيق الحكيم د. سعيد أيت حمدي
- بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ د. ديري عشا
- استمعة المعاصرة كيف يمكن للعلوم العربية الإسلامية أن تنهض ؟ د. محمد عبد السلام
- لمصول من تاريخ الثورة اليمنية (عبد الناصر واليمن) د. عبد العزيز المفلح
- مسرات حجرية د. نادر هدي
- لغة الجيوب د. فرحان صالح
- إحزان مرثية د. كامل صالح
- مقالات الإسلاميين ٢ / ١ د. الأشعري
- الصحاح - منجد عربي - عربي د. للام الزاوي
- جمهرة خطب العرب ١ / ١ د. صلوت
- القانون الدستوري والأنظمة السياسية د. أحمد سرحان
- التحويض عن الشعر المأثور في المسؤولية النقدية (دراسة مقلونة) د. السعيد المقدم
- مقاربة الخطاب في القانون والشريعة د. حسين مطا
- نظرية الباعث في الشريعة الإسلامية د. حليلة أيت حمودي
- نظرية الاستعجال في الشريعة والقانون د. حلو عبد الرحمن أبوحو
- الانتهاء التحصيلي لعقد العمل د. عبد الحميد لخيسر

هَذَا الْكِتَابُ

لقد رسمنا الخطوط الكبرى لما لشبه جزيرة العرب قبل الاسلام من دور في التهيئة للتاريخ اللاحق. إن قيام الممالك الشمالية في الحيرة وبلاد الشام «الغساسنة» ومملكة كسندة قد ساهم بقوة في بناء اللغة الشمالية وتقدمها كما ساهم في إيقاظ الأفكار.

إن الحضارة القديمة في جنوب بلاد العرب قد أثرت تأثيرها وفعلت فعلها، فلقد رأينا جماعات من العرب الجنوبيين قد عبروا الى الحبشة وأقاموا مملكة مستقلة استمرت زمناً طويلاً، في حين كانت بلاد العرب قد فقدت أهميتها عند تحوّل مركز الخلافة عنها إلى البلاد المفتوحة في سورية وبلاد ما بين النهرين. وقد أثرت في عصرنا تيارات أخرى وأفكار جديدة في تاريخ الشعوب الإسلامية^(١). غير أن دراسة الأصول ذات قيمة مثمرة في جميع الأحوال، ومن هنا كانت دراسة شبه الجزيرة في العصور التي سبقت الاسلام جديرة بلفت انتباه جميع أولئك الذين يعنىهم التاريخ المفصل للعرب.

رَأَى الْخَدَّائَةَ

لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ ش.م.م.

لبنان - بيروت ص. ب. ١٤/٥٦٣٩